٢

المجتمع القديم

تأليف :
لويس مورجان

بقلم :
د. احمد ابو زيد

يعتبر القرن التاسع عشر بحق عصر التفكير والبيولوجية أو العلوم الالسانية . ومع أن فكرة التطورى ، سواء فى مجالات العلوم الطبيعية التطور ارتبطت فى أذهان الناس بالعالم البريطانى تشارلس داروين Charles Darwin وبكتابه الهام أصل الأنواع The Origin of Species فان التفكير التطورى فى عمومه أقدم من داروين وكتاباته بل وأقدم من القرن التاسع عشر كله بكثير ، كما أن « التطور » ذاته يؤخذ بمعان كثيرة مختلفة . فالمعروف أن بذور التفكير التطورى ظهرت عند بعض الفلاسفة اليونانيين الأوائل ، وأن فكرة التطور بمعنى التقدم والارتقاء من مرحلة دنيا ومستوى متخلف الى مرحلة الحضارة الحديثة ظهرت فى كتابات عدد كبير من علماء الأنثربولوجيا والثقافة وعلم الاجتماع قبل أن تظهر نظرية داروين فى عام ١٨٥٩ ، وهو العام الذى صدرت فيه الطبعة الأولى من « أصل الأنواع » ، ويكفى أن نذكر هنا أن عالم الانثروبولوجيا الألمانى جوستاف كلم Gustav Klemm (١٨٠٢ - ١٨٦٧) الذى يعتبر من

أهم العلماء التطوريين فى الدراسات الثقافية كتب كتابه الهام عن « تاريخ الثقافة عام ١٨٤٣، أى قبل أن يظهر كتاب داروين بستة عشر عاما ، وكان كلم متأثرا بكتابات الفيلسوف الاجتماعى الفرنسى الشهير كوندورسيه Condorcet وبخاصة برأيه فى تطور الحياة من البداءة الأولى الى الاشتغال بتربية الحيوان والزراعة ثم اختراعالحروف الهجائية حتى وصل المجتمع الانسانى أخيرا الى « عصر التنوير » الذى ساد القرن الثامن عشر • ويظهر فى نظرية كلم التطورية مبدآن هامان يحكمان عملية التطور ؛ الأول هو ما يسميه بمبدأ ثنائية السلالات البشرية وبمقتضاه ينقسم الجنس البشرى الى فئتين من الشعوب : شعوب سلبية ليس لها القدرة على الاختراع والابتكار والخلق ولذا فهى تعيش على النقل والمحاكاة من غيرها (ويدخل فى ذلك الزنوج والمغول والفنلنديون والمصريون ومن اليهم وكذلك الطبقات الدنيا من المجتمع الأوربى) ، وشعوب ايجابية نشيطة ومن أهمها بطبيعة الحال العنصر الجرمانى ، ولكن الانسانية فى عمومها تميل الى الانتقال من مرحلة « الانسانية السلبية » الى مرحلة « الانسانية الايجابية » الفعالة النشيطة وذلك عن طريق المرور بعدد من الحالات أو الفترات يحددها كلم بأنها ثلاثة ، وهذه تؤلف المبدأ الثانى الذى يحكم عملية التطور عنده ، فالشعوب على اختلافها لابد أن تمر فى تطورها الطويل بمرحلة أو حالة الوحشية الهمجية Wildheit التى يحيا فيها المجتمع الانسانى حياة التجول بكل ما يلابسها من عدم امتلاك للقطعان أو الارض وعدم الاعتراف بالسلطة ثم الانتقال الدائم من مكان لآخر لممارسة صيد السمك أو قنص الحيوان اللذين يعتبران الشكلين الرئيسيين لأساليب العيش والقوت ؛ ثم تأتى مرحلة الاستئناس Zahmheit التى اضطر الانسان فيها الى الاستقرار بعض الشىء وممارسة الرعى ثم الزراعة • ومع الاستقرار جاء الخضوع للسلطة الدينية بمعنى أن الرئيس كانت له سلطات دينية الى جانب سلطاته الزمنية أو السياسية ، كما جاء مع هذه المرحلة أيضا ظهور الكتابة • وأخيرا تأتى مرحلة الحرية والانطلاق وبخاصة من سلطة رجال الدين ، وفيها ينطلق الفكر البشرى من كل القيود التى كانت تكبله ويتاح له بذلك أن يغزو كل ميادين العلم والمعرفة • وتتمثل هذه المرحلة بأجلى صورها عند الشعوب ذات الحضارات العريقة كاليونان والرومان فى الماضى والجرمان فى العصور الحديثة (١) •

ومن الصعب مع ذلك أن نغفل تأثير كتاب داروين أو نقلل من أهميته ومن الدور الذى قام به فى توجيه التفكير الانسانى فى مختلف ميادين البحث وجهة تطورية تمثلت فى ظهور كثير من الكتب عن « أصل الحضارة » أو « أصل اللغة » أو « أصل القانون » وما اليها مثلما كتب داروين كتابه عن « أصل الأنواع » ، الا أن من الصعب أيضا أن نرد كل هذا الاهتمام بالبحث عن الأصول الى « أصل الأنواع » ، فقد كانت هناك عوامل أخرى كثيرة تتصل بالجو الفكرى العام وبالواقع الذى تعيش فيه أوربا فى ذلك الحين وكلها تحفز على البحث عن « أصول » الأشياء • ففى القرن التاسع عشر ازداد الاتصال بالشعوب « البدائية » نتيجة لاتساع حركة الكشف الجغرافى والاستعمار وتكوين الامبراطوريات ،

وأدى ذلك الى اهتمام العلماء بعقد المقارنات بين هذه الشعوب والمجتمع الأوربى المتقدم بأنماط سلوكه ونظمه الاجتماعية المعقدة • كذلك شاهد القرن التاسع عشر حركة التغير الجذرى من حياة الزراعة الى التصنيع وما طرأ على المجتمع الأوربى من تحولات عميقة فى كل النظم والعلاقات • يضاف الى ذلك كثرة الاكتشافات الاركيولوجية التى تمت فى ذلك الوقت وتقدم البحوث المتعلقة بعصور ما قبل التاريخ وأشكال الحياة القديمة وتطوراتها كما تكشفت عنها الحفريات • وقد أدت هذه العوامل المختلفة الى زيادة الاهتمام بالبحث عن المراحل التى مرت بها الثقافة الانسانية ـ بالمعنى الانثربولوجى لكلمة « ثقافة » والتى يقصد بها العادات والتقاليد والفنون والصناعات والقدرات المختلفة التى يكتسبها الانسان من حيث هو عضو فى مجتمع معين • ومع التسليم بأهمية هذه العوامل والدور الفعال الذى لعبته فى توجيه الاهتمام الى البحث عن الأصول الأولى للأشياء والمراحل التى مرت بها فانه يمكن القول أن أكبر الفضل فى انتشار فكرة التطور فىالقرن التاسع عشر وسيطرتها على معظم مجالات التفكير الانسانى يرجع الى علماء البيولوجيا التطوريين الذين ذهبوا الى أن الكائنات العضوية المعقدة تطورت من صور وأشكال بسيطة للغاية ، وأن عملية التطور ذاتها كانت تتم ببطء شديد واستغرقت مئات الآلاف من السنين • وحين انتقلت هذه الفكرة الى ميدان الثقافة وميدان العلوم الانسانية كان الشغل الشاغل للعلماء فى هذه المجالات هو تتبع تلك المراحل التى مرت بها الثقافة والنظم والمجتمعات الانسانية وما طرأ عليها أثناء ذلك من تعقيد وتغاير بعد البساطة والتجانس البدائيين •

وقد يختلف العلماء التطوريون فى كثير من النواحى وبخاصة المتعلقة بتفاصيل العملية التطورية وعدد المراحل التى مر بها المجتمع والثقافة ، ولكنهم يتفقون جميعا على أن التقدم هو الصفة الغالبة على سير الحضارة ، وأن التدهور ليس الا حالة استثنائية وعارضة ومؤقتة ، وأن الحياة تسير بالضرورة نحو تحقيق مزيد من التقدم والرقى • وفى هذه النقطة بالذات يختلف العلماء التطوريون مع كثير من علماء اللاهوت فى الغرب الذين يناصرون الفكرة القائلة بأن الانسانية بدأت أول ما بدأت فى حالة معينة من الرقى والسمو ثم تعرضت للنكوص والتدهور ، وذلك اعتمادا على قصة آدم التى أوردتها الكتب المقدسة وأنه وجد فى الجنة قبل أن يهبط الى الأرض • فالجنة فى رأيهم رمز على أن الانسان الأول كان يمارس الزراعة ، ولما كانت الزراعة تمثل شكلا وأسلوبا من أشكال الحياة وأساليبها أكثر رقيا وتقدما من الرعى مثلا أو الصيد والقنص فان ذلك معناه أن الرقى هو الخاصية الطبيعية التى كانت تطبع الحياة الانسانية الاولى وأن الأشكال والأساليب الأخرى للحياة ظهرت فيما بعد نتيجة لبعض الظروف المناوئة •

كذلك يتفق معظم هؤلاء العلماء التطوريين على أن الشعوب البدائية التى توجد الآن ـ أو على الأصح التى كانت تعيش فى ذلك الحين ـ تمثل أدنى المراحل التى مرت بها البشرية • وقد أدى ذلك الافتراض بهم الى الوقوع فى كثير من الأخطاء نتيجة لاطلاقهم بعض الأحكام العامة الغير

صحيحة والتى لا تستند فى كثير من الأحيان الى حقائق ووقائع يقينية مؤكدة • وقد اعتمد هؤلاء الكتاب بوجه عام على كتابات الرحالة والمبشرين الذين عاشوا بين تلك الشعوب « البدائية » وكانوا ينظرون اليهم والى حياتهم ونظمهم وثقافتهم من زاوية معينة ، وانعكست آراؤهم فى كتابات علماء الأنثربولوجيا التطوريين بالذات• من ذلك مثلا أن لبوك Lubbock رغم علمه الغزير الواسع يذهب الى القول بأن كثيرا من الشعوب « البدائية » مثل الاندمان لا يعرفون الخجل أو العار وأنهم يتصرفون فى كثير من الأحيان تصرف البهائم ، وأن سكان جرينلنده لا يعرفون الدين أو الشعائر والطقوس الدينية بل وليس عندهم كلمة تشير الى الله • وساعد على صدور مثل هذه الأحكام تصور العلماء التطوريين أن النظم والثقافة السائدة فى أوربا تمثل بالضرورة أرقى ما وصلت اليه الانسانية وأن كل ما عداها يمثل مراحل أكثر تأخرا وانحطاطا وأنه كلما كان الشعب أو القبيلة (متأخرة) عن الأنماط السلوكية الأوربية كلما كانت أقرب الى مستوى الحيوانات •

ولكن اذا كانت الغالبية العظمى من العلماء التطوريين يستعينون بالمقارنة بين الشعوب البدائية والمتقدمة للتعرف على المراحل المختلفة التى مر بها المجتمع البشرى والثقافة ، فقد كان هناك اتجاه آخر لا يقل أهمية عن ذلك ، وكان أصحابه يعتمدون فى المحل الأول على النظم السائدة فى العصور القديمة وكذلك على الكتابات الكلاسيكية لاستنتاج تلك المراحل • وقد ظهر هذا بوجه خاص عند بعض علماء القانون الذين اهتموا بالدراسات الانثربولوجيا بطريق مباشر أو غير مباشر من أمثال سير هنرى Sir Henry Maine مين وباخوفن Bachofen • ولم يكن هؤلاء العلماء يشيرون فى الأغلب فى كتاباتهم الى النظم البدائية الا فى القليل النادر ومع ذلك كان لهم أثر واضح فى تقدم التفكير الاجتماعى والانثربولوجى التطورى • وكتاب باخوفن بالذات عن حق الأم Das Mutterrecht – الذى صدر عام ١٨٦١ – أى بعد سنتين اثنتين من ظهور كتاب داروين عن « أصل الأنواع » – ملىء بالاشارات الى الميثولوجيا القديمة والآداب اليونانية واللاتينية ، وفيه يبين المؤلف أن الانتماء الى الأم كان أسبق فى الظهور على الانتماء الى الأب ، وأن طبيعة الأشياء تحتم ذلك • فالقانون الطبيعى هو الذى يقضى بأهمية الأم ، ولم تظهر سيطرة الأب وحقوقه الا فى مرحلة تالية من تاريخ الانسانية • فالانسانية فى بدايتها تحتاج الى الرعاية والعناية وهذا هو ما يمكن أن توفره المرأة دون الرجل ، لأن المرأة بطبيعتها أقدر على تحقيق السلام والمحبة كما أنها هى التى تزرع الخير فى المجتمع • ولقد كانت الحضارات القديمة على العموم تعطى المرأة مكانة عالية مرموقة ، وكثير من الأساطير يدل على ذلك كما هو الحال فى أسطورة ايزيس المصرية • بل ان أول مظهر للعبادة – فى نظر باخوفن – كان هو عبادة الآلهه الاناث ، وأصدق مثل على ذلك هو أن « الهة » الأرض تتمثل فى معظم الأساطير فى شكل أنثى وليس فى شكل رجل • ولا يزال الكثير من المجتمعات الافريقية البدائية تتبع نظام الانتساب فى خط الاناث والانتماء الى أهل الأم دون أهل الأب مما يدل على قدم هذا النظام وعراقته •

والأمثلة كثيرة على انتشار التفكير التطورى

فى ذلك الحين بحيث يمكن اعتباره هو الاتجاه العام المسيطر على الدراسات الاجتماعية والانثربولوجية التى ظهرت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر سواء فى أوربا أو فى أمريكا • وهذا أيضا هو الطابع الذى يطبع كتابات عالم الانثربولوجيا الأمريكى لويس هنرى مورجان (۱۸۱۸ – ۱۸۱۸) وبوجه خاص أهم كتبه « المجتمع القديم » ، الذى قدر له أن يلعب دورا أساسيا ليس فى مجال الدراسات الاجتماعية والانثربولوجية فحسب بل وأيضا فى المجال السياسى ، حيث يعتبر الكتاب من أهم المصادر التى قام عليها التفكير الماركسى وان لم يكن لمورجان نفسه بطبيعة الحال يد فى ذلك •

ويحتل لويس مورجان مكان الصدارة بين علماء الانثربولوجيين الأوائل • والكثيرون من مؤرخى الفكر الاجتماعى والأنثربولوجى يعتبرونه الأب الأول للأنثربولوجيا الامريكية مثلما يعتبرون ادوارد بيرنت تايلور Edward Burnett Tylor الأب الأول للأنثربولوجيا البريطانية • الا أن شهرة مورجان ذاعت أكثر مما ذاع اسم تايلور وصيته كما أن بعض كتاباته – وبخاصة كتاب « المجتمع القديم » – ترجم الى عدد من اللغات • ويرجع ذيوع صيته الى حد كبير الى مصادفة تاريخية بحتة ، ذلك أن كارل ماركس Karl Marx قرأ كتاب « المجتمع القديم » قبل أن يموت بقليل وأوصى فريدريش انجلز Friedrich Engels بأن ينشر مكتشفات مورجان ونظرياته بين الاشتراكيين الأوربيين • وانجلز نفسه يقول فى ذلك صراحة أن ماركس « جعل من أهدافه فى المستقبل أن يقدم نتائج أبحاث مورجان فى ضوء النتائج التى توصل اليها هو – أو الى حد ما التى توصلنا نحن الاثنين – لها من دراستنا المادية للتاريخ وبذلك يبرز كل معانيها ويوضحها • ذلك أن مورجان أفلح فى أن يكتشف من جديد فى أمريكا الفكرة المادية للتاريخ التى سبق لماركس أن اكتشفها قبل ذلك بأربعين سنة ، كما أنه بمقارنته بين البربرية والحضارة وصل – فى بعض النقاط الرئيسية – الى النتائج ذاتها التى وصل اليها ماركس » (٢) • وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن اهتم الاشتراكيون والشيوعيون بكتابات مورجان لأن المعلومات التى تتردد فيها وكذلك نظريته التطورية التى عرضها فى « المجتمع القديم » بالذات تتفق مع فلسفتهم اتفاقا عجيبا • وبلغ ذلك الاهتمام من جانبهم حدا أقلق الولايات المتحدة التى تنكرت لمورجان كما أغفلت الجامعات الامريكية تدريس كتبه ، فى الوقت الذى تقوم فيه أكاديمية العلوم الروسية بترجمة كتاب « المجتمع القديم » ضمن سلسلة منشوراتها عن « التفكير العلمى الكلاسيكى » ، وكذلك فى الوقت الذى يعترف النظام السوفيتى رسميا بمورجان ويعتبر كتاباته ذات أهمية خاصة بالنسبة للتحليل المادى للشيوعية البدائية ، وذلك على الرغم من أن مورجان – كما يصفه الاستاذ روبرت لوى – كان « محاميا بورجوازيا ومسيحيا أرثوذكسيا » (٣) • وبصرف النظر عن الدور الذى لعبته كتابات مورجان – بدون قصد منه هو نفسه – فى التفكير الاشتراكى فان الكثير من الكتاب يعتبرونه « أعظم علماء الاثنولوجيا فى القرن التاسع عشر بغير منازع » • ومثل هذا الرأى يأتى من عالم له مكانته فى تاريخ الانثربولوجيا مثل الاستاذ هادون Haddon الذى

تخرج على يديه جيـــل كامل من أكبر علماء الانثربولوجيا المعاصرين . وقد تكون هنـــاك بعض التحفظات على مثل هذه الأحكام ، ولـكن كما يقول الاستاذ ليزلى وايت Leslie White ان الآراء قد تتضارب حول من هو أعظم علمـاء الاجتماع فى القرن التاســع عشر ولكن الذى لا شك فيه هو أن لويس مورجان كان من أعظم هؤلاء العلماء (٤) .

وعلى الرغم من أهمية مورجـــان فى تاريخ الفـــكر الاجتمـــاعى والانثربولوجى فانه لم يتخصص فى أى من هذين العلمين ، وانما كان فى الأصل من رجال القانون والمحاماة ، مثـله فى ذلك مثل عدد كبير من علماء الانثربولوجيا فى ذلك الحين ، أو على الأقل العلماء الذين أثروا فى الفكر الانثربولوجى من أمثال سـير هنرى مين وباخوفن وماكلينان McLennan على ما ذكرنا من قبل . ولكن مورجان يتميز على معظم هؤلاء العلماء بأنه لم يكن مجرد مفكر نظرى مثلهم ، وانما كان يجمع بين التفـكير النظرى والمعرفة المباشرة بالشعوب والجماعات والقبـائل التى كان يتكلم عنها ، كما أن هذه المعرفة كانت ترتكز فى كثير من الأحيان على الملاحظة المباشرة التى تعتبر الآن أهم وسـيلة يلجأ اليهـــا الانثربولوجيون المحدثون فى أبحاثهم فى الشعوب « البدائية » . فلقد اتصل مورجان بقبائل الايروكو Iroquois من الهنود الحمر فى منطقو نيويورك وقام بأبحاث عميقة بينهم ، كما قام بعدد من الرحلات القصيرة الى بعض المناطق التى يقيم فيها الهنود الحمر فى نبراســـكا وكنساس وذلك بالاضافة الى بعض الرحلات فى منطقة جبال روكى وخليج هدسون ونيومكسيكو . وربما كان لكساد مهنـة المحاماة فى ذلك الوقت وقلة الفرص المتاحة للعمل أمام المحامين الناشئين واضـــطرار مورجان ازاء ذلك للبحث عن العمل بأى وسيلة دخل كبير فى قيامه بهذه الرحلات واتصاله بالتالى بقبائل الهنـــود الحمر الذين استمد منهم مادة غزيرة لكتاباته . وأيا ما يكون السبب فان القيـــام بهذه الرحلات والأبحاث الحقلية تميز مورجان تميزا شديدا على غيره من معـاصريه . ويزيد من دلالة هــــذه الرحلات أنها تمت فى الوقت الذى كان الاتصال بالهنود الحمر يعتبر من أخطر الأعمـــال نظرا للعــــداء العنيف بين الرجل الأبيض والقبائل الأصلية فى أمريكا ، خاصة وأن هذه الرحـــلات حدثت أيضا فى الوقت الذى لم تكن الســـكك الحـديدية قد امتدت فيـــه الى معظم بقـــاع أمريكا ، (٥) .

وعلى الرغم من التأثير القوى الذى تركتـه كتابات مورجان فى العلماء المعـــاصرين له وفى كثير من علمــــاء أوائل القرن العشرين ، وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة الصادقة التى يبذلها بعض العلماء المحدثين لاحياء نظريته فى ضـــوء المعـــلومات الكثيرة التى توفرت أخيرا عن ماضى الحضارة الانســـانية ، وعلى الرغم أيضا من أن أقسام الانثربولوجيـــا فى كثير من الجامعـــات الامريكية ذاتها أخذت تولى كتاباته اهتماما بالغـا لم تحظ به هناك من قبل ، فان مورجان نفسه لم يشتغل بالتدريس فى أى جامعة من الجامعات . وهذا موقف يختلف كل الاختلاف عما حـــدث لتايلور مثلا فى بريطانيا ، فالمعروف أن تايلور لم يحصل على أى درجة جامعيـــة ومع ذلك قد أتيحت له فرصة التدريس فى جامعـة من أكبر جامعات العالم وهى جامعة اكسفورد اعترافا بعلمه

وخبرته ، رغم أن خبرته الميدانية المحدودة لايمكن أن تقارن بحال بخبرات مورجان الواسعة المتعددة. الا أن مورجان لقى على أى حال كثيرا من التكريم والتقدير من الهيئات العلمية والاكاديمية ، فقد انتخب عضوا عاملا فى « الرابطة الامريكية لتقدم العلم American Association for the Advancement of Science ثم أصبح رئيسا لها لعام ١٨٨٠ (قبل وفاته بعام) ، كما منح الدكتوراه الفخرية فى القانون L.L.D من ليونيون كوليج Union College عام ١٨٧٣ وانتخب بعد ذلك بعامين (١٨٧٥) عضوا بالاكاديمية القومية National Academy of Sciences وهو شرف رفيع لا يحصل عليه سوى كبار العلماء والمفكرين الأفذاذ .

ولقد تعددت كتابات مورجان ودراساته وأبحاثه حتى شملت الكثير من نواحي الحياة الاجتماعية والنظم والثقافات عند المجتمعات القبلية « البدائية » وبالذات عند قبائل الهنود الحمر . وربما كان أول كتاب له قيمة علمية هو كتاب « عصبة الهودينوساوينى أو الايروكوا League of the Ho-de-no-sau-nee- cr Iroquoi وظهر عام ١٨٥١ . وقد اشتهر هذا الكتاب فى الدوائر الانثربولوجية باسمه المختصر « عصبة ايروكوا The League of the Iroquoi وكثير من مؤرخى الفكر الانثربولوجى يعتبرون هذا الكتاب أول دراسة علمية تقوم على أسس سليمة لوصف الحياة الاجتماعية لأى قبيلة من قبائل الهنود الحمر ، بل اننا نجد عالما مثل جولد نفايزر Goldenweiser الذى قام هو نفسه بدراسة ميدانية بين الايروكوا يقول فى كتابه المشهور عن « الحضارة المبكرة Early Civilizatio » ان أفضل دراسة عامة عن الايروكوا هى كتاب مورجان (٦) ، كما أن الاستاذ لوى Lowie يصفه بأنه خير تقرير وصفى عن الهنود الحمر (٧) . ويعتمد الكتاب - مثل كتب الانثربولوجيا الحديثة - على الملاحظة المباشرة ، ويتميز بالاهتمام البالغ بدراسة التنظيم الاجتماعى عند هذه المجموعة من القبائل ، ويعتبر ذلك اتجاها جديدا يختلف كل الاختلاف عن الاتجاه السائد حينذاك فى الكتابات الانثربولوجية التى كانت تعنى فى المحل الأول بالعادات والتقاليد وملامح الثقافة المختلفة . فكأن مورجان يرتفع فى هذا الكتاب على الكثيرين من العلماء المعاصرين له والذين كانوا ينحون فى كتاباتهم نحوا وصفيا سرديا بحتا . وليس من شك فى أن مورجان باتجاهه نحو دراسة التنظيم الاجتماعى كان من أهم العوامل الممهدة لظهور الانثربولوجيا الاجتماعية والاتجاه البنائى الوظيفى الذي يعتبر الطابع العام للدراسات الانثربولوجية فى الوقت الراهن . وربما كان هذا هو ما يقصده العالم الانثربولوجى البريطانى المعاصر ايفانز بريتشارد (٨) من أن لويس مورجان - وشأنه فى ذلك شأن بعض علماء الاجتماع فى القرن التاسع عشر مثل اميل دوركايم وهربرت سبنسر - كان يرى أن الغرض من الانثربولوجيا هو التصنيف والتحليل الوظيفى للأبنية الاجتماعية وليس تصنيف الثقافات وتحليلها على ما كان يفعل تيلور وعلماء الانثربولوجيا الأمريكيون وان كتابات مورجان بذلك تكون اقرب الى مايعرف الآن بالانثروبولوجيا الاجتماعية. ومع ذلك فان هذا لا يعنى أن مورجان كان يميز تميزا قاطعا بين المجتمع والثقافة على ما يفعل العلماء المحدثون ؛ فالمفهومان كانا مختلطين فى

عهده . كذلك لا يعني هذا أن مورجان أغفل الملامح الثقافية اغفالا تاما . فجانب كبير من كتاب « عصبة الايركوا » يعالج ملامح الحياة الفنية والتكنولوجية عند هذه القبائل .

وفي عام ١٨٦٨ أصدر مورجان ثاني كتبه المهمة عن « القندس الامريكي وأعماله The American Beaver and His Works وهو يكشف لنا عن قدرة مورجان على المثابرة في ملاحظة تحركات ذلك الحيوان البرمائي الذي يتحاشى في العادة الظهور أمام الناس والذي له القدرة على اقامة السدود والأكواخ على السواء . وكان مورجان مغرما منذ صباه الأول بمراقبة هذه الحيوانات في هدوء وسكون واستخفاء ويشاهد أعمالها وانشاءاتها الهندسية الرائعة وبذلك أتى كتابه دراسة رائعة ودقيقة لها لدرجة أن عالم النفس الحيواني البريطاني روماني G.S. Romanes كتب بعد نصف قرن من ظهور الكتاب يقول انه أدق وأشمل دراسة حول هذا الموضوع (٩) . وقد انتهى مورجان في آخر هذا الكتاب الى أن ثمة كثيرا من نواحي التشابه العقلي بين الانسان والحيوانات أو « العجماوات » كما كان يسميها ، فالقنادس تعتمد في بنائها للسدود على التفكير والذاكرة والارادة كما أنها تكشف عن درجة عالية من المعرفة لأن انشاءاتها على العموم تشبه الى حد كبير بعض الانشاءات والاختراعات البدائية عند الانسان وأنه ليس هناك ما يدعو الى الزعم بأن هذه الأعمال تصدر عن نوع مختلف من التفكير والعمليات الذهنية . فالمسألة في نظره لم تكن مسألة « غريزة » بحتة لأن الغريزة أمر مهين للانسان وللعجماوات على السواء لأنها تحط من قدراتهما وكفاءتهما وذكائهما . ولقد كان الانسان والحيوان على العموم يتمتعون وقت الخلق وفي البداية بملكات وقدرات متشابهة ولكن بدرجات مختلفة مما أتاح للانسان أن يتقدم بخطوات أوسع وأسرع وهذا هو كل الفرق بين الجنس البشري وبقية الكائنات الحيوانية (١٠) .

ثم ظهر الكتاب الثالث لمورجان ، ولعله أكثر كتبه جميعا أصالة وجدة في الموضوع ، وهو كتاب « اتساق روابط الدم والمصاهرة في العائلة الانسانية Systems of Consanguinity and Affinity of the Human Family. عام ١٨٧٠ . وليس من شك في أن مورجان أمضى سنوات طويلة في الاعداد لهذا الكتاب الفذ الذي فتح أبوابا جديدة وطريقة في دراسة نسق القرابة في المجتمعات البدائية ، وفيه يقدم لنا مورجان نظام القرابة السائد عند كثير من قبائل الهنود الحمر والذي أطلق عليه اسم نظام القرابة التصنيفي Classificatory . وقد حمله البحث في هذا الموضوع الى زيارة عدد كبير من هذه القبائل لجمع المعلومات المتعلقة به بنفسه . ومنذ ذلك الحين وعلماء الانثربولوجيا يتبعون التقسيم الهام بين اتساق القرابة الى اتساق وصفية واتساق تصنيفية تبعا لمصطلحات القرابة وللحقوق والواجبات المتعلقة بكل نوع منهما وكذلك أنماط السلوك التي تتلازم في الوجود مع كل نسق من هذين النسقين (١١) .

ويصف العالم الانثربولوجي البريطاني ريفرز Rivers هذا الاكتشاف في كتابه عن « القرابة والتنظيم الاجتماعي بقوله Kinship and Social Organization « انني لا أعرف أي اكتشاف آخر في كل العلم

يستحق الاعجاب بصاحبه أكثر من اكتشاف نسق العلاقات التصنيفية الذى اكتشفه لويس مورجان • ولست أقصد بذلك مجرد أنه كان أول من بين بوضوح وجود هذه الطريقة لتحديد العلاقات بل انني أقصد أنه كان أول من جمع مثل هذه المعلومات الهائلة عن الخصائص الأساسية التى يتميز بها ذلك النسق كما أنه كان أول من اعترف بالأهمية النظرية الفذة لهذا الكشف الجديد » (صفحة ٥٢٤) •

واذا غضضنا النظر عن بعض كتاباته الأخرى الأقل أهمية مثل كتابه عن

Diffusion Against Centralization

الذى نشر عام ١٨٥٢ وكان فى الأصل مجموعة محاضرات ألقاها أمام المحافل العلمية وكذلك كتابه عن Houses and House. Life of the American Aborigines

الذى ظهر قبيل موته عام ١٨٨١ فانه أهم كتبه وأشهرها جميعا هو الكتاب الذى نحن بصدده ، وهو كتاب « المجتمع القديم » الذى ظهر عام ١٨٧٧ ، ولعله هو الكتاب الوحيد الذى لا يزال يجد له صدى حتى الآن خارج دائرة العلماء المتخصصين (١٢) •

وكتاب « المجتمع القديم » يعكس النمط التطورى الذى كان يسود بشكل عام فى تفكير القرن التاسع عشر • وللكتاب عنوان فرعى يعبر بوضوح عن ذلك الاتجاه التطورى وهو :

Researches in the Lines of Human Progress from savagery through Barbarism Civilization.

ولقد ظهر « المجتمع القديم » كنتيجة طبيعية لاهتمام مورجان بدراسة انساق القرابة وتطورها ، ومع ذلك فان أثره تعدى كل الآثار التى تركتها بقية كتاباته الأخرى مع أنه ليس أكثر هذه الكتابة أصالة وعمقا وتفردا • وربما كانت أهميته راجعة فى المحل الأول الى أنه كان يعبر تعبيرا صادقا عن الاتجاه الانثولوجى فى دراسة المجتمع ، وهو الاتجاه الذى كان يلقى أشد الترحيب فى ذلك الحين ، وذلك بالاضافةالى ما سبق أن ذكرناه من التقائه مع المبادىء الأساسية فى التفكير الماركسى والاشتراكى بوجه عام •

والهدف الأساسى للكتاب هو محاولة رسم وتحديد النسق التطورى الذى مرت به الانسانية فى تاريخها ، وقد اهتم مورجان بوجه خاص بدراسة تطور الحكومة وأشكالها المختلفة وتطور الزواج والقرابة وأشكال الملكية كمؤشرات لذلك التاريخ التطورى • ومع أن مورجان يتفق فى هذا الاتجاه العام مع معظم علماء عصره الا أنه كان ينظر الى المسألة نظرة أوسع من نظرة الكثيرين من هؤلاء العلماء • وربما كان ذلك راجعا الى تنوع اهتماماته واتساع معرفته اذ كان يحاول تطبيق هذه النظرية على الانسانية ككل فى كل عصورها وفى كل المناطق ، مستندا فى ذلك على معلومات أدق وأوثق مما نجده فى كتابات العلماء الآخرين ، حتى أشدهم تدقيقا فى اختيار المعلومات مثل ماكلينان McLennan • ولكن على الرغم من أنه كان يركز على دراسة هذه الموضوعات القليلة نسبيا والتى سبق ذكرها الا أنه فى الوقت ذاته كان يعمل على ابراز العلاقات المتبادلة بين هذه النظم القليلة التى اختارها وبقية مظاهر الثقافة وعناصر الحياة الاجتماعية والنظم الأخرى القائمة فى المجتمعات التى كان يعرض لها ، ولذا نجد أنه على الرغم من أنه يعتبر على العموم من أتباع المدرسة التطورية فانه يعتبر فى

الوقت نفسه من المبشرين بقيام الاتجاه الوظيفي الذي أسهم اسهاما قويا في هدم المدرسة التطورية والقضاء عليها • وعلى أي حال فان نظريته في التطور الاجتماعي كما يعرضها في « المجتمع القديم » تعتبر بحق النقطة المركزية في كل تفكيره كما أنها تمثل جزءا هاما من اسهاماته في النظرية الاجتماعية العامة • وهذا لا يقلل بطبيعة الحال من أهمية كتابه عن « الاتساق » •

ولقد كان من المحتم أن يصطدم مورجان برجال الدين في عهده نتيجة لاعتناقه النظرية التطورية والدفاع عنها ومحاولة اثباتها بطريقته الخاصة • فمع أن معظم كلام مورجان عن التطور كان ينحصر في مجال النظم الاجتماعية والثقافة ولم يكد يتعرض لتطور الكائنات الحية الا في كتابه عن « القندس الامريكي وأعماله » وكذلك في بعض المقالات المتفرقة فان هذا لم يجنبه تماما التعرض لكثير من الهجوم والنقد من جانب الكتاب اللاهوتيين وغيرهم من الكتاب الذين كانوا يقبلون بغير مناقشة النظرية المسيحية عن الكون والخلق كما تظهر في سفر التكوين • وليس من شك في أن مورجان نفسه كان يقبل هذه القصة الدينية في شبابه قبل أن يتحول الى نظرية التطور ، فلما بدأ يضع تفسيره العلمي لنشأة المجتمع والانسان وتطورهما • أخذ يتحول تدريجيا عن التفسير المسيحي بحيث أنكر ذلك التفسير تماما مثلما فعل داروين تماما ، كما أنكر بالتالي النظرية التي كان يشايعها رجال الدين عن « تدهور الانسان » أو « تدهور الثقافة » وترد ظهور الشعوب البدائية أو الهمجية الى حدوث نكسة أصابت تلك الشعوب التي ظهرت في أول حالة أكثر تقدما ورقيا على ما سبق أن ذكرنا •

ويقول مورجان في ذلك ما نصه : « لم يعد لنظرية التدهور الانساني لتفسير وجود الشعوب الهمجية والبربرية أي قدرة على الصمود والبقاء• فلقد ظهرت هذه النظرية كنتيجة للنظرية الموسوية عن خلق الكون وتقبلها الناس لاشباع حاجة مزعومة لم يعد لها وجود الآن • والواقع أنها – كنظرية – ليست عاجزة فقط عن تفسير وجود الشعوب الهمجية بل انها أيضا تفتقر الى ما يسندها ويدعمها من أحداث التجربة الانسانية وحقائقها » (المجتمع القديم ، صفحة ٧) (١٣) • ومهما تكن الاعتراضات التي أثيرت على كلام مورجان من جانب اللاهوتيين وغيرهم فقد أفلح في عرض نظريته في التطور الاجتماعي والثقافي ببساطة بالغة وبطريقة منطقية في القسم الأول من الكتاب ثم خصص الأقسام الثلاثة التالية لمناقشة تطور فكرة الحكومة ثم تطور فكرة العائلة ثم تطور فكرة الملكية بكثير من التفصيل والدقة والاحاطة بالمشكلات الفرعية الكثيرة التي يتعرض لها باسهاب

ويتلخص رأي مورجان في التطور – كما يعرضه في كتاب المجتمع القديم – في أن تقدم الأساليب الفنية والوسائل التكنولوجية وازديادها وتنوعها بحيث يتمكن الانسان من أن يسيطر على البيئة التي يعيش فيها ويتحكم بوجه خاص في مصادر القوت والطعام ويعمل على توسيعها تؤدي كلها الى تقدم الثقافة والنظم الاجتماعية • فهناك علاقة قوية بين توسيع موارد الطعام ومصادر الرزق من ناحية والتقدم الثقافي والاجتماعي من الناحية الأخرى وخير دليل على ذلك هو أن انتقال المجتمع الانساني من الاعتماد على الثمار البرية مثلا الى ممارسة الزراعة قد صاحبه ونتج

عنه تغيرات أساسية فى شكل المجتمع نفسه اذ تغير النظام القبلى القديم الى نظام المجتمع المتمدين الحديث وحل نظام الدولة بذلك محل نظام العشيرة والقبيلة (١٤) ، وفى ذلك يقول مورجان فى بداية الفصل الثانى من « المجتمع القديم » : « ان الحقيقة الهامة التى تقول ان الجنس البشرى بدأ فى أسفل السلم ثم شق طريقه بجهد للصعود والارتقاء تتمثل بشكل واضح فى أساليب المعيشة المتتالية التى انتحلها • فسيادة الانسان وسيطرته على الأرض تعتمد كلية على مهارته فى هذه الناحية فالانسان هو الكائن الوحيد الذى يمكن أن يقال عنه انه تمكن من أن يتحكم بشكل مطلق فى عملية انتاج الطعام ؛ وهذه ناحية لم يتفوق فيها على الحيوانات الأخرى فى أول الأمر • ولم يكن فى امكان الجنس البشرى أن ينتشر الى المناطق الأخرى التى لا تتوفر فيها أنواع الطعام التى كان يألفها – وبالتلى لم يكن يتاح له أن ينتشر فوق سطح الأرض كلها – لو لم يفلح فى توسيع قاعدة طعامه • وأخيرا فانه لم يكن فى امكان الجنس البشرى أن يتوالد ويتكاثر ويؤلف الأمم الكثيرة السكان لو لم يتمكن من السيطرة سيطرة مطلقة على أنواع الطعام ومقاديره • وعلى ذلك فمن المحتمل أن يكون ثمة اتفاق وتلازم مباشرين بين العهود الكبرى للتقدم البشرى من ناحية واتساع مصادر القوت والطعام من الناحية الأخرى (المجتمع القديم ، صفحة ١٩) • وهذا كله معناه فى آخر الأمر أن العامل المتحكم فى شكل الحياة الاجتماعية وفى التطور الاجتماعى هو الأساليب والوسائل التكنولوجية ، وذلك على أساس أن موارد الرزق والعيش ومصادر الطعام تكثر وتزداد نتيجة لزيادة الفنون التكنولوجية وما كانت تحققه من تقدم على فترات متباعدة فى تاريخ الانسانية ؛ ذلك التقدم الذى كان يتمثل بوجه خاص فى الاختراعات والاكتشافات الجديدة المتتالية• فالانسان لايستطيع بذلك أن يحيا ويتقدم ويتطور بغير ان لم يستغل مصادر الطبيعة لصالحه الخاص ، وهذا الاستغلال لن يتيسر الا باستخدام الوسائل الفنية والتكنولوجية الملائمة، واستخدام هذه الآلات والوسائل بطريقة مجدية لن يتيسر هو نفسه الا اذا سادت فى المجتمع نظم اجتماعية مناسبة تنظم حياة أفراده ، فالعلاقة بين النظم الاجتماعية والأساليب الفنية والآلية اذن علاقة وثيقة بحيث ان أى تقدم تكنولوجى يستتبع بالضرورة حدوث تغيرات جوهرية فى النظم السائدة حتى تتفق وتتماشى مع ما طرأ على هذه الأساليب التكنولوجية ذاتها من تغيرات (١٥) •

ورغم وضوح هذه النظرية وبساطتها فان مورجان لم يستخدمها باطراد منهجى فى بقية أجزاء الكتاب • فهو يغفل فى كثير من الأحيان ما سبق أن ذكره عن العلاقة القوية بين الفنون الآلية والتكنولوجية من ناحية والنظم الاجتماعية من الناحية الأخرى ، ويذهب بدلا من ذلك الى أن النظم الاجتماعية نشأت مما يسميه ببذور التفكير الأولية Primary germs of thought الراسخة منذ البداية فى ذهن الانسان • وكثير من فقرات الكتاب – حتى فى المقدمة ذاتها – توحى للقارىء بأن مورجان يرى أن تطور النظم الاجتماعية حدث مستقلا ومنفصلا عن التقدم الفنى الذى نشأت عنه الاختراعات والاكتشافات العديدة الهامة • من ذلك مثلا ما يقوله فى الصفحة الثانية من مقدمة الكتاب : « ولقد تتابع ظهور الاختراعات والاكتشافات واحدا بعد الآخر على

طول خطوط التقدم الانسانى ، وهى تسجل فى تتابعها المراحل المتتالية التى مر بها هذا التقدم • أما النظم الاجتماعية والمدنية فقد تطورت من بعض بذور التفكير الأولية نظرا لما لهذه النظم من صلة قوية بالحاجات البشرية الأساسية الدائمة•• وحين نقارن هذه الاكتشافات والاختراعات ونوازن بينها نجد أنها تمثل الى أن تكشف لنا عن وحدة أصل الجنس البشرى ، وعن التشابه بين الحاجات البشرية فى المرحلة الواحدة من مراحل التقدم وكذلك عن تشابه عمليات العقل البشرى تحت الظروف الاجتماعية المتماثلة » •

ولقد أدى ذلك ببعض العلماء الى القول بأن مورجان كانت عنده نظريتان - وليس نظرية واحدة - عن التطور الاجتماعى ، وأنه فى احدى هاتين النظريتين كان يذهب الى أن الحياة الفنية والآلية هى العامل المسيطر المسئول عن التقدم الاجتماعى والثقافى ، بينما تذهب النظرية الثانية الى أن الأفكار الباطنية أو التلقائية الأصيلة الكامنة فى ذهن الانسان هى التى تنمو وتتطور وتترعرع وتعبر عن نفسها فى شكل النظم • ويبدو على ما يقول ليزلى وايت (صفحة ١٤٢ من المرجع المذكور) أن كلام مورجان عن « بذور التفكير الأولية التى تنبت وتسكن فى ذهن الانسان والتى تنمو بمرور الزمن انما جاء نتيجة لتأثره بالنظريات السيكولوجية التى كانت تسود فى عصره • ولقد وردت مثل هذه الأقوال فى كتابات العلماء الآخرين المعاصرين له من أمثال باستيان Bastian وسير هنرى مين الذى يشير فى كتابه « القانون القديم Ancient Law » الى ظهور بعض أنواع الضبط الأخلاقى من بعض « البذور الأولية » • ومع ذلك فان الطابع الغالب على كتاب مورجان هو الترابط القوى بين تقدم الفنون الآلية والأساليب التكنولوجية من ناحية والتغير الاجتماعى من ناحية ثانية• ويظهر هذا الترابط بشكل أوضح حين يتكلم عن انتقال المجتمع من الحالة القبلية الى الحالة المدنية أى الى نظام الدولة • والواقع ان مورجان نفسه يعترف بوجود « طريقين » مستقلين للبحث فى تطور الانسان والمجتمع وان لم يذكر أن هذين الطريقين يمثلان نظريتين مختلفتين، وانما هما على الأصح ناحيتان متكاملتان تؤلفان معا نظرية واحدة • ويقول فى ذلك ما نصه : « وهكذا نجد أن هناك طريقين مستقلين للبحث يسترعيان الانتباه • وأحد هذين الطريقين يقود خطواتنا خلال الاختراعات والاكتشافات ، بينما يقودنا الطريق الآخر خلال النظم الأولية ، ومن المعلومات التى سوف تحصل عليها من هذين الطريقين نرجو أن نبين المراحل الرئيسية للتطور الانسانى » (المجتمع القديم صفحة ٤) •

***

وهذا هو ما فعله مورجان فى كتابه الذى يصفه كارل ريزيك Karl Resek مؤرخ حياة مورجان بأنه « محاولة بطولية لابراز القوانين التى تقدم الانسان من أسفل السلم حتى عتبة الحضارة » (١٦) •

وقد بدأ مورجان بتقسيم التاريخ البشرى كله الى عدد من المراحل التى يرتبط كل منها بمظاهر ومميزات اقتصادية وفكرية وبالتالى بنظم قرابية وسياسية معينة بالذات نتيجة لتوافر ما يسميه بظروف المجتمع »، وهى ظروف تتشابه فى المرحلة الواحدة من مراحل التطور على ما ذكرنا • فأى اختلاف فى النظم اذن معناه وجود اختلاف فى

البيئة الطبيعية ، وفى هذا استناد الى مبدأ الحتمية الجغرافية الذى كان يسيطر على أذهان الكثيرين من علماء القرن الماضى والذى نبذه العلماء المتأخرون ممن يتجهون فى كتاباتهم اتجاها وظيفيا يعتمد فى المحل الأول على تبين العلاقات المتبادلة بين مختلف النظم القائمة فى المجتمع - والفصل الأول من الكتاب يدور حول تلك المراحل التى يسميها مورجان « المراحل الاثنية أو الجبلية Ethnical Periods » وأطلق عليها هذه التسمية لكى يبين أن كلا منها يمثل حالة متميزة من حالات المجتمع كما أنها هى ذاتها تتميز بأسلوب للحياة خاص بها » (المجتمع القديم صفحة ٨) وهو بذلك يرفض التقسيم السائد حينذاك والذى كان يميز فى تاريخ الانسانية بين « عصور » حجرية وبرونزية وحديدية وما اليها • ويقول مورجان نفسه فى ذلك « ان مصطلحات العصر الحجرى والعصر البرونزى والعصر الحديدى التى أدخلها علماء الأركيولوجيا الدينماركيون كانت مفيدة فى مجال تصنيف موضوعات الفن القديم ؛ مفيدة فى مجال تصنيف موضوعات الفن القديم ؛ الا أن تقدم المعرفة يجعل من الضرورى ايجاد تقسيمات فرعية أخرى مختلفة • فالأدوات الحجرية مثلا لم تنبذ تماما حين صنعت الآلات الحديدية أو الآلات والأدوات البرونزية • وقد أدى اختراع طريقة صهر خام الحديد الى ظهور حقبة جبلية Ethnical متمايزة بينما من الصعب أن نقول ان استعمال البرونز أدى الى ظهور مثل هذه الحقبات • يضاف الى ذلك أن نظرا لتداخل مرحلة الأدوات الحجرية فى مرحلتى الأدوات البرونزية والحديدية وكذلك نظرا لتداخل مرحلة البرونز فى مرحلة الأدوات الحديدية فان هذه الأدوات لا تعتبر أساسا صالحا لتحديد المراحل تحديدا قاطعا وفاصلا تماما •

« ومن المحتمل أن تستطيع أساليب ووسائل المعيشة المتعاقبة أن تزودنا بأفضل أساس لمثل هذه التقسيمات وذلك بفضل ما لهذه الأساليب والوسائل التى كانت تظهر على فترات متباعدة من الزمن من تأثير قوى على حياة الانسان• ولكن الدراسات والبحوث لم تتعمق فى هذا المجال بحيث تمدنا بالمعلومات الضرورية • وكل ما نستطيع أن نفعله فى حدود معلوماتنا الحالية للوصول الى هدفنا الرئيسى هو أن نختار بعض المخترعات والمكتشفات الأخرى التى تقدم لنا دلائل عن التقدم تكفى لأن تحدد بداية المراحل الجبلية المتعاقبة • وحتى لو قبلنا هذه المراحل على أنها مجرد مراحل مؤقتة فسوف نجدها ملائمة تماما لأغراضنا ومفيدة • أو سنجد أن كل مرحلة من المراحل التى سوف نقترحها الآن تغطى ثقافة متميزة تماما كما أنها تمثل أسلوبا معينا من « أساليب الحياة » • (المجتمع القديم ، صفحتا ٨ ، ٩) •

ولقد مرت الانسانية فى رأى مورجان بمرحلتين كبريين قبل أن تصل الى مرحلة الحضارة أو المدنية الحديثة• وتنقسم كل مرحلة من المرحلتين الأوليين الى ثلاث فترات تمثل كل فترة منها مستوى ثقافيا واجتماعيا معينا ويسمى هذه الفترات الثلاثة بالقديمة أو الدنيا والوسطى ثم الحديثة أو العليا • أما المرحلتان الكبريان السابقتان على الحضارة المدنية فهما مرحلة الوحشية أو الهمجية Savagery حلة البربرية Barbarism وكان التقدم الانسانى يسير باطراد واستمرار

خلال الزمن ويتزايد ازديادا هندسيا - على حد تعبير مورجان - نظرا لأن كل عنصر من عناصر الثقافة والمعرفة الانسانية كان يصبح هو نفسه عاملا اضافيا فى تحقيق مزيد من التقدم والتطور وبالتالى اكتساب مزيد من المعرفة ، وبخاصة المعرفة بالأساليب التكنولوجية التى تعتبر الأساس الأول للثقافة •

ومن الصعب ، ان لم يكن من المستحيل أن نعثر على محكات التقدم التى تحدد بداية هذه الفترات المختلفة فى كل أنحاء العالم بدون استثناء كما يقول مورجان ، وعلى ذلك فانه يكفى فى نظره تصنيف القبائل الرئيسية التى ينقسم اليها الجنس البشرى تبعا لدرجة تقدمها النسبى وبالتالى تبعا للمرحلة الثقافية التى تمر بها المستوى الثقافى الذى وصلت اليه ، وتعتبر مرحلة الهمجية أولى مراحل التقدم وفى الوقت ذاته أطول هذه المراحل وأكثرها صعوبة • فلقد كان البشر يعيشون حينذاك عيشة أقرب الى عيشة الحيوانات • وعلى أى حال فقد بدأت الفترة القديمة من هذه المرحلة - وهى تمثل أدنى مستويات الحضارة الانسانية على الاطلاق بظهور الجنس البشرى وارتبطت بطفولته الأولى وانتهت باكتشاف النار • وكان الانسان يعتمد فى هذه الفترة فى طعامه على الفواكه والثمار والدرنات التى تقدمها له الطبيعة كما أنه بدأ يكتشف الكلام الذى يختلف فى جوهره عن صياح الحيوانات وصراخها • ويعترف مورجان بأنه لم تبق من هذه الفترة القديمة أية قبائل يمكن أن تعتبر مثالا واضحا عليها : وقد بدأت الفترة الوسطى من مرحلة الهمجية - وهى تمثل المستوى الثقافى المتوسط - بانتحال الانسان لصيد السمك كمهنة له من ناحية والاعتماد على السمك ذاته كغذاء رئيسى له ، كما أنه عرف استخدام النار وبخاصة فى الطهى ، واخترع القوس والسهم وبدأ بذلك ينتشر من موطنه الأصلى الى مختلف بقاع العالم حتى وصل الى أبعد المناطق • ويعتبر أهالى استراليا الأصليون ومعظم شعوب بولينيزيا من أفضل الأمثلة التى تمثل لنا حالة الجنس البشرى فى تلك الفترة الوسيطة من مرحلة الهمجية • وبعدها جاءت الفترة الأخيرة أو الحديثة من تلك المرحلة التى يمثلها الآن الكثير من قبائل الهنود الحمر فى الأمريكيتين •

ويعتبر اختراع الفخار العامل الأساسى الذى يفصل عهود الهمجية وفتراتها الثلاثة عن مرحلة البربرية بعهودها وفتراتها الثلاثة أيضا ، ولذا فان مورجان يعتبر كل الشعوب التى لم تعرف هذه الصناعة ولم تمارسها شعوبا همجية مهما كان لديها من مقومات الحضارة الأخرى الأكثر رقيا ، بينما على العكس من ذلك يرى أن الشعوب التى عرفت الفخار قد تخطت مرحلة الهمجية بالفعل ودخلت الى المرحلة الثانية حتى ولو لم تكن لديها لغة مكتوبة أو حروف هجائية ، على الرغم من أن اكتشاف الحروف الهجائية الصوتية واستخدام الكتابة يعتبران أهم الاحداث المميزة لانقضاء مرحلة البربرية فى عمومها ، نظرا لأن اكتشافهما كان ايذانا بنشأة المدنية وظهورها كمجتمع متميز • كذلك توصلت الانسانية فى هذه المرحلة البربرية أيضا الى عدد من الاكتشافات المهمة الأخرى التى كان لها أثر واضح فى تقدم المجتمع الانسانى مثل الزراعة ومعرفة أساليب الرى واستخدام الحجارة واللبن فى البناء واكتشاف طريقة سبك الحديد وتطويعه • وكان أعلى وأسمى ما توصل اليه الانسان فى آخر المرحلة هو كما قلنا ظهور مجتمع

المدنية • فقبل ظهور المدن كان يسكن أوربا عدد من القبائل الكبرى العامة التى نشرت حضارتها فى ذلك الحين مثل القبائل اليونانية على أيام هوميروس والقبائل الايطالية التى لم تلبث أن قامت بتأسيس روما بعد ذلك ، ثم القبائل الجرمانية فى عصر القيصر ، وهكذا •

وهذا معناه فى آخر الأمر أن مرحلة المدنية الحديثة لم تبدأ الا منذ عهد قريب نسبياء وليس ثمة ما يدعو الى الدخول فى التفاصيل الكثيرة التى يوردها مورجان حتى فى الصفحات الأولى من كتابه عن هذا التقسيم الثلاثى لتاريخ العالم والمجتمع والأنماط الثقافية والتكنولوجية التى ترتبط بكل مرحلة وكل فترة • والمهم هنا هو أن مورجان كان يقيم تمييزه بين المراحل والعهود أو الفترات الثقافية ليس على أساس زمنى بحت وانما على أساس الظروف العامة السائدة فى المجتمع • وهذا هو السبب فى أنه يضع أهالى أستراليا الأصليين فى المستوى الأوسط من مرحلة الهمجية بينما يضع الهنود الحمر الذين يسكنون فى قرى نيومكسيكو وسكان أمريكا الوسطى وبيرو على أيامه فى المستوى الأوسط من مرحلة البربرية ، وذلك نظرا لأن ظروف المعيشة عند هذه القبائل المختلفة تتفق مع ما يتصوره عن تلك المراحل والعهود والفترات والمستويات الثقافية المختلفة التى يعتقد أن الانسانية مرت فى تاريخها الطويل •

***

ولقد سبق أن ذكرنا أن مورجان يرى أن تدرج الانسان فى مراحل التطور من البساطة الى التعقيد ومن الهمجية الى الحضارة الحديثة ينعكس فى كثير من ملامح الحياة العامة وبعض مظاهر التنظيم الاقتصادى والاجتماعى ، وأن أبرز مظهر لهذا التدرج يتمثل فى فن الحصول على القوت وفى وسائل المعيشة المختلفة • وعلى الرغم من الصعوبات التى واجهها الانسان المبكر فى ذلك الأمر فليس ثمة شك فى أن الانسان هو الكائن الوحيد الذى استطاع أن يسيطر سيطرة كاملة على مسألة انتاج الطعام وتوفيره ، وان كانت هناك فروق واختلافات من مجتمع لآخر ، وأن مطالب العيش كانت دائما من أهم ما يشغل به الانسان نفسه فى كل العصور ، وأن البحث عن الطعام والرغبة فى تنويعه أو – كما يقول مورجان – الرغبة فى توسيع دائرة الطعام ، كانا من أهم العوامل التى عملت على هجرة الانسان من موطنه الأصلى وانتقاله الى مواطن أخرى حتى عمر الأرض بأكملها ، وأن هذا يعنى فى آخر الأمر أن البحث عن الطعام كان من أهم الأسباب التى أدت الى ظهور المجتمعات البشرية الكبيرة القائمة الآن • وقد دفع ذلك مورجان الى أن يعطى عناية خاصة لمسألة مصادر الطعام فى العالم خلال مراحل التاريخ المختلفة متبعا المنهج التطورى نفسه الذى يصبغ الكتاب كله • وعلى هذا الأساس يميز مورجان بين خمسة أنواع من مصادر الطعام أو وسائل المعيشة ظهرت على فترات متتالية ومتباعدة ولكنها فيما بينها تمثل التدرج من البساطة الى التعقيد • ويرتبط المصدران الأولان من هذه المصادر الخمسة بمرحلة الهمجية بينما ترتبط المصادر الثلاثة الأخرى بمرحلة البربرية • وقد خصص مورجان الفصل الثانى من الكتاب لمعالجة هذا الموضوع •

وأول هذه المصادر هو ما يسميه مورجان

« المعيشة الطبيعية التى تعتمد على الثمار والدرنات فى موطن الاقامة المحدد » . وينقلنا هذا المصدر الى المرحلة البدائية الحقيقية للجنس البشرى حين كان الناس يعيشون فى جماعات قليلة العـــدد وتعتمد على غذاء بسيط وتشغل مساحات محددة وصغيرة من الأرض ... ولم يكن لديهم فنون أو نظم .. كما لم يكن لديهم ســـوى اختراع واحـد هو اللغـة التى يتكلمـونها والتى يمكن ارجاعها الى حقبة بعيدة جدا فى الزمن. ويوحى نوع الطعام الذى يعتمدون عليه بأنهم يعيشـون فى الأجواء المدارية أو شبه المدارية ، اذ المتفق عليه أن موطن الانسان البدائى نشأ فى مثل هذه الظروف المناخية ، فلقد اعتدنا ـ ولنا الحق فى هذا ـ أن ننظر الى أســـلافنا الأوائل على أنهم بدأوا حياتهم ووجودهم فى الغابات المليئة بالثمار والفواكه تحت شمس المناطق المدارية » (المجتمع القديم ، صفحة ٢٠) . ولما كان الانسان فى هذه الظروف البدائية يشغل ذهنه طيلة الوقت بالبحث عن الطعام فى الغابات ، وهو نمط من الحياة يتطلب من صاحبه التنقل بصـفة دائمـة ومستمرة لجمع الثمار والتقاط الدرنات فقد كان من المتعذر أن يظهر عند هذه الجماعات أى تنظيم اجتماعى أو سياسى واضح المعالم نظرا لافتقار هذه الجماعات الى الحياة المستقرة اللازمة لنشأة النظم الاجتماعية وظهورها ، وهذا هو السبب فى أن مورجـــان يذكر فى النص السابق على أن الجمـاعات التى تعتمد على هذا النمط من « المعيشـة الطبيعية » ليس لديهم فنون أو نظم .

والمصدر الثانى من مصادر القوت هو السمك ، ويعتبره مورجان أول نوع من الطعام الغير طبيعى artificial نظرا لأنه لا يعتبر صـالحا تمـاما للأكل فى صورته الطبيعية وهو لا يزال نيئا وانما يحتاج دائما للانضاج عن طريق الطهى . والمهم من الناحية الحضارية البحتة أن اعداد السـمك كغذاء مناسب يتطلب استخدام النار ، ولذا فمن المحتمل أن يكون طهى السمك هو السبب الأصلى فى « اختراع » النار ، أى أن النار لم تكتشف بطريق الصدفة على ما يذهب اليه الكثيرون من علماء الثقافة وانما « اخترعت » عن عمد وقصد لأهميتها بل وضرورتها للحياة . ويعتبر السمك من مصادر الطعام المتوفرة بكثرة فى كثير من أنحاء العالم وفى كل العصور وعلى مختلف المواسـم والفصول ولذا فان الاعتماد عليه يرتبط بأبسط أشكال التجمعات الانسانية التى تعيش فى مرحلة الهمجية . والشىء نفسه يصدق على قنص الحيوان الذى يجمع بين حياة التنقل والتنظيم الاجتماعى الذى يقوم على قلة العدد وكذلك توفر الحيوانات فى كثير من المنـاطق المدارية وشـبه المدارية ، بالاضـافة الى أن لحم الحيوان طعـام غير طبيعى كالسمك ويحتاج مثله الى النار .

وتعتبر الحبوب أول شكل من أشكال الطعام والقـوت التى ترتبط بالمرحلة البربرية . فلقـد استطاع الانسان أن يعتمد فى معاشه على الحبوب البرية منذ الفترة الأولى القديمة من فترات من هـذه المرحلة ثم تمـكن من تدجين الحبـوب أو استئناسها وبالتالى من زراعتها فى حدائق صغيرة خاصة فى أول الأمر قبل أن يعكف على الزراعة فى الحقول الواسعة ذات المساحات الكبيرة. وكانت الـذرة من أول أنواع الحبـوب التى زرعت فى الحدائق ، وقد عرفها سكان أمريكا الأصليون قبل أن تعرفها قبائل آسيا وأوربا ، كما عرفت قبـائل نصف الكرة الشرقى الأرز (فى الهند) والقمح

(فى اليونان) وان كان هذا لا يمنع من أن بعض الشعوب القديمة الأخرى مثل مصر وبلاد ما بين النهرين عرفت زراعة الحبوب قبل اليونان .

كذلك شاهدت هذه المرحلة (البربرية) أولى محاولات الانسان لاستئناس الحيوانات فى آسيا وأوربا . ويعتقد مورجان أن هذه « الصناعة » كانت أكثر انتشارا فى نصف الكرة الشرقى لكثرة الحيوانات هناك عنه فى نصف الكرة الغربى الذى ظل الناس فيه لا يعرفون من الحيوانات غير اللاما (فى بعض جهات بيرو) فى الفترة القديمة من مرحلة البربرية . وأدى استئناس الحيوانات الى ظهور نمط جديد من الحياة هو تربية الماشية والرعى على السهول . وعلى العموم فان استئناس الحيوانات وتدجين النباتات وبخاصة الحبوب قد ساعدا على توفير الطعام، وظهر ذلك بشكل واضح جلى حين اتسع نطاق الزراعة واخترع الانسان وسائل الرى المعقدة التى تحتاج فى العادة الى درجة عالية من المهارة الفنية والتكنولوجية . كذلك ساعد استئناس الحيوان على توفير الانسان لجانب كبير من المجهود الفيزيقى أو العضلى الذى كان يقوم به فى حياته اليومية وبخاصة فى الزراعة اذ بدأ يستعين بالحيوانات المختلفة فى أداء الأعمال المرهقة وبذلك أضاف القوة الحيوانية الى قواه الجثمانية هو نفسه ، ويعتبر ذلك فى نظر مورجان « اختراعا » هاما وعاملا حيويا فى زيادة الانتاج . ثم جاء استخدام الحديد وبخاصة فى صنع المحراث والفأس الحديدية ليسهم اسهاما بالغا فى تقدم فن الحصول على القوت . وتعتبر هذه العوامل الثلاثة (الحيوان والمحراث والفأس) من أهم العناصر التى تقوم عليها زراعة الحقول التى تتطلب تطهير مساحات كافية وفسيحة من الأرض ، وبذلك ظهر لأول مرة فكرة ازالة الغابات واعداد الأرض للزراعة الكثيفة . ومع الزراعة ظهر الميل الى الاستقرار ، وأدى الاستقرار الى الزيادة المطردة فى السكان وامكان تجمعهم بالتالى فى مناطق معينة بالذات واقامتهم فيها بصفة دائمة ، وهى كلها أمور لم تكن ميسورة تحت كل أشكال المعيشة السابقة وأنماطها نظرا لعدم وفرة الطعام من ناحية وعدم امكان الاطمئنان الى مصادر ثابتة ومستمرة من الغذاء . ولقد شعر الانسان فى حياته المستقرة بضرورة ايجاد تنظيمات اجتماعية تسهل الحياة وتنظم العلاقات بين الناس فظهر بذلك التنظيم الحكومى بمعناه المعروف حيث تخضع جماعات كبيرة من الناس لأول مرة لسلطة حكومة واحدة وان كان هذا لا يمنع بطبيعة الحال من ظهور بعض أشكال الحكم الأخرى لدى بعض جماعات الرعاة فى السهول أو عند بعض الجماعات التى كانت تمارس زراعة الحدائق ولكنها عرفت فى الوقت ذاته وسائل الرى المعقدة . ولكن هذه تعتبر فى نظر داروين حالات استثنائية . فالحكومة بالمعنى الدقيق المكلمة انما ترتبط بالزراعة الكثيفة الدائمة الواسعة أى زراعة الحقول .

ولقد حقق الانسان فى مرحلة الحضارة الحديثة الكثير من الانتصارات ووصل الى عدد كبير من الاكتشافات والاختراعات مثل البرق والغاز المتولد من الفحم وآلات الغزل والنسج والآلات التى تدار بالبخار بما فيها القاطرات وكذلك السفن التجارية وما الى ذلك ، وعلى الرغم من أهمية هذه المخترعات وعلى الرغم مما أضافته الشعوب المتحضرة العريقة وما حققته حضاراتها القديمة والحديثة على السواء من تقدم فان « هذه الحضارات استمدت الكثير من مخترعات مرحلة البربرية

السابقة واكتشافاتها ونظمها كما اعتمدت عليها وقامت على أكتافها. فكل انجازات الانسان المتحضر لا تستطيع رغم عظمتها وسموها أن تخفى أعمال الانسان فى حالته البربرية الذى استطاع أن يشكل كل عناصر الحضارة وأن يملكها بالفعل فيما عدا الكتابة التى تعتمد على الحروف الهجائية • والانجازات التى حققها الانسان اذن وهو فى تلك الحالة البربرية يجب أن تنظر اليها فى علاقتها بكل التقدم الانسانى ، وقد نجد أنفسنا حينئذ مضطرين الى الاعتراف بأنها تفوق – فى أهميتها النسبية – كل أعماله اللاحقة » (المجتمع القديم صفحة ٣١) •

***

الا أن هذه التغيرات فى أساليب العيش تتعدى حدود البحث عن الطعام الى مجالات الحياة الأخرى ، اذ تلازمها تغيرات وتطورات هامة فى شكل العائلة والحكومة والملكية ، وهى كما قلنا من قبل ، النظم الثلاثة التى يعطيها مورجان مزيدا من عنايته واهتمامه ويخصص لها الأجزاء الباقية من كتابه ، فاذا كان الجزء الأول من الكتاب وهو الذى عرضنا له فيما سبق من هذه الدراسة يعتبر بمثابة مقدمة عامة يستعرض فيها أهم مبادىء نظريته التطورية فان الأجزاء الثلاثة التالية عبارة عن دراسة تطبيقية لتلك المبادىء وفيها يحاول أن يبين لنا مدى الاتساق بين التغيرات المادية والتكنولوجية من ناحية والتغيرات فى النظم الاجتماعية الثلاثة الأساسية التى سبق ذكرها فى هذه الفقرة • ونظرا لأهمية العائلة والتنظيم القرابى فى حياة المجتمع الانسانى وارتباطها بالحكومة والملكية فان مورجان يمهد للدراسة التطبيقية كلها بعرض سريع للتطورات التى طرأت على شكل العائلة الانسانية ثم يعود بعد ذلك فى القسم الثالث من الكتاب لكى يدرس هذه الأمور بكثير من التفصيل

ولقد سبق أن ذكرنا ان لمورجان كتابا آخر عن « انساق روابط الدم والمصاهرة فى العائلة الانسانية » ، وهذا يدل على مدى اهتمامه بهذا الموضوع حتى قبل أن يعرض له فى كتاب « المجتمع القديم » • ونود أن نذكر منذ البداية أن نظرية مورجان عن تطور العائلة لا تستند فى كثير من الأحيان على دلائل وبيانات مؤكدة أو يقينية ولكن على الرغم من كل ما يعيبها من نواحى النقص فقد أسهمت اسهاما كبيرا فى تقدم الدراسات الخاصة بأنساق القرابة فى المجتمعات « البدائية » •

ويذهب مورجان الى أن الأصل فى المجتمع البشرى هو « الزمرة الاجتماعية التى تعيش عيشة الاباحية الجنسية » ، حيث لم يكن ثمة ضابط أو قواعد أو قوانين تحدد العلاقات الجنسية بين الناس • ولكن لم يلبث الجنس البشرى أن عرف نظام العائلة وارتفع بذلك عن مستوى الحيوانات • ويميز مورجان فى ذلك بين خمسة أشكال للعائلة الانسانية ، أولها هو « العائلة الد Consanguine Family أو العائلة التى تقوم أصلا على روابط الدم نظرا لانها تنشأ عن طريق التزاوج بين الأخوة والأخوات فى الجماعة الواحدة • ويجىء بعدها فى التطور ما يسميه مورجان « العائلة البونالوية Punaluan Family وقد استمد هذه التسمية من العلاقة المعروفة باسم علاقة البونالوا Punalua فى جزر هاواى • ومع أن هذا الشكل من العائلة يحترم تزاوج الاخوة

والأخوات الا أن الزواج مع ذلك زواج جماعى ولذا فانه يعرف فى العادة فى الكتابات الانثربولوجية باسم « زواج الجماعة Group marriage » وفيه نجد أن جماعة من الاخوة يشتركون معا فى عدد من الزوجات أو العكس. وكلمة « أخ » هنا لا تطلق على الاخوة بالمعنى الدقيق للكلمة وانما تمتد بحيث تشمل أبناء العمومة من الدرجة الأولى والثانية والثالثة ، أى أنها مصطلح تصنيفى ، وكذلك الحال بالنسبة لكلمة « أخت » ، وينتمى هذان الشكلان من أشكال العائلة الى مرحلة الهمجية. والشكل الثالث للعائلة هو « العائلة السندیازمية Syndyasmian والاسم مشتق من كلمة Syndyazo التى تعنى «زوج» أو «اثنين» كما أن كلمة Syndyasmos معناها « ربط شيئين معا » . فكأن هذا النوع من العائلة يقوم على زواج شخصين ولكن دون أن يكون هناك ما يجبرهما على المعيشة معا بشكل دائم ، كما أن الانفصال أو الطلاق يعتبر من حق كل من الزوجين ، ولم يؤد هذا النوع من الزواج الى خلق روابط دم مثبتة الا أن العائلة السندیازمية تعتبر مع ذلك فى رأى مورجان بداية لظهور العائلة الأحادية أو المونوجامية التى تعتبر آخر ما وصل اليه نظام الزواج والعائلة فى تطوره . والشكل الرابع هو « العائلة الأبوية الكبيرة Patriarchal » ، وهى تقوم على أساس تعدد الزوجات للرجل الواحد ، ولكن مورجان يستخدم هذا الاصطلاح بمعنى ضيق ومحدود ويشير به بوجه خاص الى العائلة التى كانت معروفة بين القبائل العبرانية الرعوية حيث كان الرؤساء والشيوخ هم الذين يمارسون تعدد الزوجات . ويرى مورجان أن هذا الشكل من العائلة لم يكن له أثر كبير واضح فى الحياة الاجتماعية لأنه لم يكن شكلا عاما سائدا فى العالم كله . وأخيرا تأتى العائلة المونوجامية Monogamian التى تقوم على أساس الزواج بين رجل واحد وامرأة واحدة بحيث يعيشان معا بصفة مستمرة ولا يندمجان فى أى وحدة عائلية أخرى ويعتبر هذا – على مايقول مورجان – عنصرا جوهريا فى هذا النظام . وهذا الشكل هو الشكل السائد فى المجتمع المتمدين وعلى ذلك فهو شكل حديث بالضرورة. كما أنه يؤدى الى خلق نسق واضح ومتميز من روابط الدم .

***

وقد عاد مورجان كما ذكرنا الى هذا الموضوع نفسه فى القسم الثالث من الكتاب حيث يزود القارىء بكثير جدا من الأمثلة التى تبين وجود هذه الأشكال العائلية وشيوعها فى مختلف مراحل التقدم الانسانى ، وقد وضع لذلك القسم عنوانا عاما هو « نمو فكرة العائلة » وقسمه الى ستة فصول عالج فيها على التوالى : العائلة القديمة ثم العائلة الدموية ثم العائلة البونالوية ثم العائلة السندیازمية والعائلة الأبوية الكبيرة فى فصل واحد (الفصل الرابع من ذلك القسم) ثم العائلة المونوجامية وأخيرا درس فى الفصل السادس تابع النظم المتعلقة بالعائلة والعادات المختلفة التى أسهمت فى ظهور العائلة ونموها وتطورها . الا أن هذا التتابع ليس سوى فرض يضعه مورجان بطريقة تعسفية دون أن يكون لديه من الأدلة والبيانات التعيينية ما يسند ذلك الغرض أو يدعمه وقد اضطر مورجان نفسه فى آخر ذلك الفصل الى الاعتراف بأن الجدول الذى وضعه لكى يبين

فيه تتابع أشكال الزواج وما يرتبط بها من عادات ونظم « قد يحتاج لبعض التعديل بل وربما لادخال تغييرات جوهرية فى بعض أجزائه ، ولكنه مع ذلك يقدم لنا تفسيرا معقولا ومقنعا لحقائق التجربة الانسانية بقدر ما تسمح به معرفتنا بتلك الحقائق .. » (المجتمع القديم : صفحة ٥١٥). ومهما يكن من شيء ، فليس ثمة ما يدعو الى الدخول فى تفاصيل تلك التتابع أو الجدول الزمنى الذى يضعه مورجان فى ذلك الصدد نظرا لظهور بطلانه وبالتالى انعدام أهميته من الناحية العلمية، ويبقى بعد ذلك ما سبق أن ذكرناه من أن أهم ما أسهم به مورجان فى دراسة نسق القرابة هو اكتشافه لمصطلحات القرابة التصنيفية ، أو على الأقل ابرازه وتوجيه أنظار علماء الأنثربولوجيا اليه .

والواقع أن عددا من الكتاب والرحالة كانوا قد أشاروا الى وجود نظام القرابة التصنيفى قبل مورجان بزمن طويل . ولعل من أهم هؤلاء الكتاب الفرنسى لافيتو Lafitau الذى ذكر فى القرن الثامن عشر أن الكثيرين من قبائل الهنود الحمر مثل الايروكوا Iroquois والهيرون Hurons ينادون خالاتهم بالكلمة ذاتها التى يستخدمونها للأم كما أنهم يستخدمون كلمة واحدة للأب والأعمام وكذلك كلمة واحدة لأخواتهم ولأبناء أخوالهم وخالاتهم وأعمامهم وعماتهم وهكذا. ولكن لافيتو لم يعمل على تطوير هذه الملاحظة أو التعمق فى دراستها. وكان الكتاب الآخرون الذين لاحظوا مثل هذه الملاحظة يعتبرون ذلك الأمر من غرائب العادات التى تنفرد بها الشعوب والجماعات « البدائية » الى أن جاء مورجان واكتشف أن هذه « العادات الغريبة » هى فى حقيقة الأمر انساق متماسكة تحكمها قواعد مرسومة بدقة وعناية . ومع أن مورجان يرى أن القرابة على العموم هى مسألة بيولوجية أكثر منها ظاهرة اجتماعية ــ وهذا أمر يأخذه عليه الانثربولوجية المحدثون ويعتبرونه نقصا فى نظريته ــ فانه لم يغفل هذه الناحية تماما بل انه ذهب الى حد القول بأن مصطلحات القرابة وسيلة وطريقة لتنظيم الحياة الاجتماعية ، كما أن كلّ مصطلح من هذه المصطلحات علامة ودليل على أن ذلك الشخص يقف موقفا معينا من أشخاص آخرين تربطهم به علاقة ذات معنى معين بالنسبة له ولهم على السواء ، وأن تصرفات الأفراد وسلوكهم تختلف تبعا لنوع العلاقة التى تقوم بينهم داخل نسق القرابة والتى يعبر عنها بذلك المصطلح المعين . « فالناس لا يتبعون انساق القرابة أو يعدلونها أو ينبذونها كيفما شاء لهم الهوى . انما يرتبط ظهور هذه الأنساق فى الأصل بحركات المجتمع العضوية التى أدت الى ظهور تغييرات كبيرة فى ظروفه . وحين يشيع استخدام شكل معين بالذات ويتم اختراع المصطلحات الخاصة به وتستقر أساليبه تماما فانه بحكم طبيعة الأشياء ــ لا يتغير الا ببطء شديد . فكل انساق يغير مركزا لجماعة من الأقارب وعلى ذلك فان كل شخص يكون مضطرا الى أن يستخدم النسق السائد وأن يفهمه بدقة ، وعلى ذلك فسوف يكون من أصعب الأمور تغيير أى علاقة من هذه العلاقات . ويزيد من هذا الميل الى الاستمرار والبقاء أن هذه الأنساق نشأت بفعل العرف والتقاليد وليس عن طريق التشريع والقانون أى أنها ظهرت عن طريق النمو الطبيعى وليست مجرد اختراعات وابتكارات صناعية وعلى ذلك فلن يمكن تغييرها

الا اذا كان الدافع على التغيير عاما وقويا مثل الدافع على استخدامها .. فهناك اذن تأثيرات قوية ساعدت على بقاء النسق واستمراره بعد أن تغيرت الظروف التى نشأ فيها فى الأصل أو حتى بعد أن اختفت هذه الظروف تماما بوقت طويل » . (المجتمع القديم ، صفحتا ٤٠٧ و ٤٠٨) .

وواضح من هذا النص أنه اذا كانت أنساق القرابة وبالتالى مصطلحات القرابة قد نشأت فى الأصل نتيجة للعلاقات البيولوجية وارتبطت بما يسميه مورجان « حركات المجتمع العضوية » فان لها معنى اجتماعيا هو الذى يؤدى الى المحافظة عليها وبقائها واستمرارها فى الوجود .

وليس المقصود بذلك هو الدفاع عن مورجان، اذ ليس من شك فى أن نظريته القائمة على التاريخ الظنى وعلى التخمين فيها الكثير من العيوب ومن أوجه النقص ، ولكن لابد من أن نأخذ فى الاعتبار أنه كتب كتاب « المجتمع القديم » ومن قبله كتاب « الأنساق » الذى وضع فيه أسس نظريته عن القرابة فى وقت لم تكن الدراسات والبحوث الانثربولوجية الميدانية بالمعنى الحديث للكلمة قد عرفت بعد ، ولم تكن المعلومات عن الشعوب « البدائية » قد توفرت بالكثرة التى هى عليها الآن ، ولم يكن العلماء يبحثون عن « المعنى الاجتماعى » أو « الوظيفة الاجتماعية » للظواهر والنظم بقدر ما كانوا يبحثون عن أصول هذه الظواهر والنظم وتطورها .

وكلام مورجان عن القرابة له أهميته البالغة فى فهم المجتمع وتطوره نظرا لأن أشكال القرابة المختلفة ترتبط بأشكال مختلفة من التنظيم الاجتماعى . فالمجتمع القديم على العموم يقوم على الروابط القرابية القوية ، ولكن هذه الروابط لا تلبث أن تضعف بتقدم المجتمع وتعقد الحياة الاجتماعية مما يؤدى الى ظهور تنظيم اجتماعى جديد ، أو على الأصح نوع جديد من المجتمع الانسانى يختلف تماما عن النوع القديم . « فتجربة الجنس البشرى .. أدت الى تطوير أسلوبين من أساليب الحكم ، وكل من هذين الأسلوبين عبارة عن تنظيم محدد ومنهجى للمجتمع . وأول هذين الأسلوبين وأقدمهما كان تنظيما اجتماعيا يقوم على أساس العشائر والأفخاذ والقبائل ، بينما كان الأسلوب الثانى الذى ظهر فى وقت متأخر تنظيما سياسيا يقوم على أساس الاقليم والملكية . وقد نشأ عن الأسلوب الأول مجتمع عشائر تسوس الحكومة فيه الأشخاص من خلال علاقاتهم باحدى العشائر أو القبائل، وكانت هذه علاقات شخصية بحت بينما نشأ عن الأسلوب الثانى مجتمع سياسى تسوس الحكومة فيه الأشخاص من خلال علاقاتهم باقليم معين كالمدينة مثلا أو المقاطعة أو الدولة ، وكانت هذه علاقات اقليمية بحت . فالأسلوبان اذن مختلفان اختلافا جوهريا ، كما أن أحدهما ينتمى الى المجتمع القديم بينما ينتمى الآخر الى المجتمع الحديث .

« ويفتح التنظيم العشائرى لنا نظاما من أقدم النظم التى عرفها الجنس البشرى وأكثرها شيوعا وانتشارا ، اذ أنه يؤلف أسلوب الحكم الذى كان يسود فى كل مكان تقريبا فى المجتمع القديم سواء فى آسيا أو أوربا أو افريقيا أو استراليا ، كما كان هو الأداة التى تنظم المجتمع وتعمل على تماسكه . وقد بدأ هذا التنظيم فى مرحلة الهمجية واستمر خلال الفترات الثلاثة التى تؤلف مرحلة البربرية وظل قائما حتى ظهور المجتمع السياسى

الذى لم ينشأ الا بعد مرحلة الحضارة والمدنية » • (المجتمع القديم ؛ صفحة ٦١) •

وهذه التفرقة التى يقيمها مورجان بين نوعى التنظيم الاجتماعى وشكلى الحكومة أو أسلوبى الحكم هى التفرقة التى نجد لها مثيلا لدى عدد كبير من علماء الاجتماع والانثربولوجيا الذين يميلون الى التميز بين المجتمع القديم الذى يطلق عليه عموما اسم Societas والمجتمع الحديث أو المجتمع المدنى : الذى يطلق عليه اسم Civitas وهما تسميتان نجدهما مثلا عند سير هنرى مين Sir Henry Maine ثم عند توينس Tonnies ودوركايم Durkheim ة اذن ليست من مبتكرات مورجان وانما هى فكرة شائعة قبله• وقد ميز مين بالذات فى عام ١٨٦١ — أى قبل أن يكتب مورجان كتابه بحوالى ستة عشر عاما — بين التنظيمات السياسية التى تقوم على روابط الدم وتلك التى تقوم على روابط الجوار ، ومن المحتمل أن يكون مورجان قد تأثر بكتابات سير هنرى مين• وعلى العموم فان الذى يميز المجتمع القديم — وكذلك المجتمع البدائى — هو أن أعضاء المجتمع جميعا من الأقارب وهذا معناه أن مركز الشخص ودوره فى الحياة تحددهما روابط القرابة التى تربطه ببقية أفراد العشيرة أو القبيلة التى تعتبر هى الوحدة الاجتماعية المتمايزة والتى تسود فيها الديمقراطية والحرية والمساواة نظرا لروابط الدم التى توحد بين أعضائها • وعلى العكس من ذلك نجد أن أعضاء المجتمع الحديث أو المجتمع السياسى هم مواطنون فى المحل الأول بصرف النظر عما قد يكون بينهم من روابط قرابية • بل الواقع أن الروابط القرابية لا يكاد يكون لها أى اعتبار فى هذا الأسلوب من أساليب الحكم حيث تعتبر الدولة — وليس العشيرة أو القبيلة — هى الشكل الأساسى للحكم بكل ما يرتبط بالدولة من فوارق طبقية قد تتمثل فى انقسام الناس الى سادة وعبيد أو الى ملوك ورعية أو الى أغنياء وفقراء ، وهى أوضاع لا يعرفها المجتمع القديم أو البدائى بالمعنى الذى يأخذ به مورجان هذا الاصطلاح • ومع أنه توجد بعض الفوارق الهامة فى المجتمعات البدائية بحيث تتميز بعض فئات من الناس على غيرهم ببعض الأعمال مثل احتكار ممارسة السحر أو صنع الفخار ، فان هذه التمييزات لا تؤدى الى ظهور طبقات اجتماعية بالمعنى الدقيق للكلمة ويظل المجتمع القديم والمجتمع البدائى فى الوقت الراهن قائمين على أساس المساواة بين أفرادهما •

ولقد تتبع مورجان فى القسم الثانى من الكتاب — وهو بعنوان نمو فكرة الحكومة — وهو فى الوقت ذاته أطول أقسام الكتاب الأربعة ويشغل أكثر من نصف الكتاب — تطور فكرة الحكومة من الأسلوب القديم القائم على روابط القرابة الى الأسلوب الحديث أو السياسى القائم على روابط المكان أو الاقليم فى عدد كبير من المجتمعات • ولكنه يخصص جزءا كبيرا من هذا القسم (حوالى الثلث) لقبائل الايروكوا بالذات التى درسها هو نفسه دراسة حقلية ، ويعالج فى هذا الجزء الذى يشغل أربعة فصول كاملة (فى أكثر من مائة صفحة) العشيرة الايروكويه ثم الفخذ ثم القبيلة وأخيرا اتحاد قبائل الايروكوا • وينتقل من ذلك الى دراسة تطور الحكومة لدى عدد من قبائل الهنود الحمر الأخرى وعند جماعات الآزتكة فى المكسيك ثم تطور النظام العشائرى القبلى فى بلاد الاغريق وظهور فكرة الأمة والمجتمع السياسى هناك ، كما يفعل الشىء

ذاته بالنسبة للمجتمع الرومانى السياسى وتطوره من العشائر والقبائل الايطالية القديمة بل ويعرج بالوصف بعـــد ذلك الى العشائر الاســتكلندية والايرلندية والقبـــائل الجرمانية وبعض النظم القبلية والعائلية الآسيوية والصينية والعبرانيـــة وغيرها لكى يدلل على صدق نظريته •

وقد أدى تعقد مطالب المجتمع واحتياجاته الى ظهور أسلوب الحكومة الحـــديث أو التنظيم السياسى على ما يسميه مورجان وفى ذلك يقول مورجان نفسه : « من الواضح أن اخفاق النظم العشائرية فى أن تقابل احتياجات المجتمع المعقدة هى التى أدت الى ظهـور الرغبـة فى سحب كل السلطات المدنية من العشائر والأفخاذ والقبـــائل واسنادها الى هيئات ومنظمات أخرى جديدة • وقد تمت هذه الحركة بالتدريج بحيث استغرقت فترة طويلة من الزمن وتجسدت فى عدد من التجارب والمحاولات المتتالية التى كانت تهدف الى البحث عن علاج للشرور القائمة حينـذاك • وقد ظهر النظام الجديد بنفس البطء الشديد الذى اختفى به النظام القديم بحيث وجد النظامان جنبـــا الى جنب لفترة من الزمن » • (المجتمع القـــديم : صفحة ٢٦٣) • ولكن مهما يــكن من اخفاق النظام العشائرى عن تحقيق كل مطالب المجتمع المعقدة فقد كان له أثر قوى وفعـال فى مختلف النظم الاجتماعية ، وقد استمر ذلك الأثر خـــلال الجزء الأكبر من حياة المجتمع الانسانى فى كل مكان من الأرض ، كما كان هذا الجزء بالذات من كتاب مورجان هو الذى صادف قبولا شديدا لدى معظم علماء الانثربولوجيا والاجتماع ، بحيث نجد الأستاذ رادكليف براون مثـــلا يقول فى ذلك : « والواقع أننا نستطيع أن نتفق مع مورجان فى أن الانتقال من الأشكال الدنيا الى الأشكال الأكثر رقيا للحضارة مثل الشكل السائد فى مجتمعاتنا نحن كان فى جوهره انتقالا من المجتمع الذى يقـــوم على القرابة الى الدولة التى تقـــوم على التنظيم السياسى » (١٧) •

ويخصص مورجـــان القسم الرابع والأخير لموضــوع « نمو فكرة الملكيــة » • ومع أن هذا القسم هو أقصر أقسام الكتاب اذ لا يشغل سوى ثمان وعشرين صفحة من صفحات الكتـاب التى نعتمد عليها هنـــا) الا أن الكثيرين من العلماء يعتبرونه من أفضل ما كتب عن الموضوع من وجهة النظر التطورية ، كما أن لهذا الموضوع أهميـة قصوى فى نظرية مورجان نفسه على ما يقـــول ليزلى وايت (١٨) •

ولموضوع الملكية الوارثة صلة وثيقة بالتفرقة الأساسية التى يقيمها مورجان بين نوعى المجتمع فى القديم أو البدائى والحديث أو المدنى • ولقد تتبع مورجان فى ذلك القسم القصير من الكتاب وهو يضـم فصلين بعنوان واحـد هو « قواعـد الوراثة الثلاثة ») تطور فكرة الملكية محاولا أن يبين أن الرغبة فى الاحتلال نمت ببطء شـــديد تبعا لازدياد الثروة المتاحة للانسان من المخترعات والاكتشافات التى توصل اليها خـــلال مرحلتى الهمجية والبربرية وربط ذلك كله بأشـــكال العائلة وانساق القرابة • ففى المجتمع القـــديم وكذلك فى المجتمع البدائى Societas لم يكن الناس يعطون كثيرا من الاهتمام لمسألة الملــكية والممتلكات ، وربما كان السبب فى ذلك هو أن الانسان فى الأصل ، وبخاصة فى مرحلة الهمجية أو التوحش ـ لم يكن لديه ما يملــكه بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة • فقد كان هم الناس منصرفا

فى الأغلب الى الحصول على الطعام وتوفير القوت الا أن تقدم المجتمع نتيجة لتقدم الحياة التكنولوجية أدى الى زيادة الممتلكات وبالتالى الى ظهور فكرة الملكية أو ما ارتبط بها من فكرة الوراثة التى لم يكن لها بطبيعة الأمور وجود فى المراحل الأولى من تطور المجتمع • فالمعروف مثلا أنه فى تلك المراحل لم يكن الانسان يستخدم سوى بعض الأدوات والآلات البدائية القليلة مثل الحراب والسكاكين المصنوعة من الصوان والمثاقيب التى تستخدم فى توليد النار وربما بعض الأحذية المصنوعة من جلود الحيوانات وكانت كل هذه (الأمتعة) تدفن أو تحطم بعد موت الشخص الذى يستخدمها أو توزع على الأهل والأصدقاء • ومن هنا كان مورجان يعتبر ازدياد الممتلكات والتفكير الطبيعى فى الوراثة من أهم العوامل التى أثرت فى التطور الاجتماعى •

ولقد تطورت فكرة الوراثة ذاتها تبعا لتطور المجتمع وبخاصة تطور العائلة بحيث اتخذ نظام الوراثة ثلاثة أشكال مختلفة يعرضها مورجان تحت ما يسميه بقواعد الوراثة أو مبادىء الوراثة • والقاعدة الأولى أو المبدأ الأول للوراثة كان ينص على أن تؤول (ممتلكات) الميت الى أفراد عشيرته جميعا ولكن مع تفضيل الأقارب الأقربين من الناحية العملية وحين تقدم المجتمع وتغير شكل العائلة أصبحت الوراثة تنحصر فى الأقارب العاصبين للميت دون بقية أفراد العشيرة وتعتبر هذه هى القاعدة الثانية من قواعد الوراثة ، ثم لم يلبث هذا النظام أن خضع لمزيد من التعقيدات بحيث أصبحت الوراثة محصورة فى الذرية من الذكور وتفضيلهم على الاناث العاصبات ، وهذه هى القاعدة الثالثة التى نشأت نتيجة لتطور نظام الانتساب وانحصاره فى خط الذكور بعد أن ظهر الزواج المونوجاص أو الاحادى، وما استتبعه ذلك من امكان تحديد النسب بدقة ، وهو الأمر الذى كان مستحيلا فى زواج الجماعة مثلا والذى كان يحتم انتساب الأولاد الى أمهاتهم نتيجة لعدم معرفة الأب بدقة وبالتحديد • والواقع أن مورجان يذهب فى ذلك الى حد القول بأن الرغبة فى توريث الممتلكات هى التى غيرت نظام الزواج من العائلة الدموية (أو زواج الجماعة) الى العائلة المونوجامية ، مما أدى الى تضييق نطاق الجماعة الفعالة المتماسكة من العشيرة الى الأسرة الصغيرة ، كما أنه يلاحظ أن بعض المجتمعات الاكسوجامية (أى التى تحتم الزواج الداخلى أو الاندوجاصى) رغم أن هذا الزواج يعتبر محرما وأقرب الى الزنا بالمحارم فى طبيعته ، وذلك حين لا يكون للميت وريث ذكر من العاصبين فى الخط المباشر ولم يترك الا ذرية من الاناث ، وكان المجتمع يلجأ الى خرق قواعد الاكسوجامية لكى يحافظ على الثروة وحتى لا تخرج الممتلكات الى عشيرة أخرى اذا تزوجت المرأة من خارج جماعتها •

ولكن ما المقصود بقول مورجان ان المجتمع القديم لم يكن يعرف فكرة الملكية وأنه لم يكن يهتم بها وما أسباب ذلك ؟ ، من الواضح - كما ذكرنا من قبل - أن عدم الاهتمام بالملكية كان راجعا من ناحية الى قلة ما يمكن للانسان أن يتملكه كما أن المصادر الطبيعية للقوت كانت حقا مشاعا للجماعة كلها • بل ان الأرض ذاتها فى مرحلة الهمجية كانت مشاعا للاستغلال كما كانت المساكن (ملكا) جماعيا لساكنيها ، وحتى حينما عرف الانسان تدجين النباتات وزراعة الحبوب فى حدائق خاصة كانت الأرض تعتبر ملكا

للجماعة كلها مع اعطاء حق الانتفاع للشخص أو الأسرة باستخدام مساحة معينة من تلك الأرض وبذلك لم تكن هناك ملكية خاصة أو فردية للأرض أو لأى مصدر آخر من مصادر الثروة الطبيعية • وبطبيعة الحال لم يعرف الانسان فى مرحلة الهمجية وفى المجتمع القديم بصفة عامة نظام التجارة أو البيع والشراء أو التعامل بالنقود وأدى ذلك الى تساوى جميع أفراد المجتمع القديم نظرا لعدم توفر أسباب التفاوت الاقتصادى الشديد ، كما أدى بالضرورة الى تعاونهم معا خاصة وان أعضاء الجماعة الواحدة كانوا يرتبطون بروابط القرابة ، وانعكس ذلك التعاون على الخصوص فى تقديم الطعام للمحتاجين وغير القادرين من أعضاء الجماعة ولذا يطلق مورجان على ذلك اسم « شيوعية وسائل المعيشة » •

ولكن بتقدم الحياة الاجتماعية وتطورها وتعقدها وبخاصة حين بدأ الانسان يكرس كل جهده على زراعة مساحة معينة بالذات من الأرض بطريقة منظمة ازداد ارتباطه بتلك الأرض ، ولم تلبث الحقوق التى كان يتمتع بها فى زراعة تلك المساحة المعينة بالذات أن أصبحت نوعا من الملكية وساعة على ذلك ازدياد اهتمام الانسان بتأنيس الحيوانات ثم اختراع الفخار والنسيج والدروع المصنوعة من جلود الحيوانات والأسلحة والأدوات المعدنية • وازدادت الثروة الزراعية على الخصوص وزاد الفائض من المحصولات فظهرت التجارة ، واستتبع ذلك ظهور النقود والتعامل بها وأصبح كل شىء موضوعا للبيع والشراء بما فى ذلك الأرض نفسها بل والانسان ذاته فى كثير من الأحيان وبذلك ظهرت الملكية الخاصة وتوارى النظام القديم الذى كان يقوم على التعاون والاخاء والمساواة وعرف المجتمع الطبقات الاجتماعية والارستقراطية والعبودية وهى كلها أمور لم تكن معروفة فى المجتمع القديم •

وجاءت الحضارة الحديثة « وتطور نظام الملكية تطورا هائلا وتنوعت أشكالها وتشعبت استخداماتها كما تفنن الانسان فى ادارة الممتلكات بطريقة ذكية بما يعود بالخير على أصحابها ••• ويقف العقل البشرى فى الوقت الحالى حائرا أمام هذا النظام الذى اخترعه بنفسه • ولكن سوف يأتى الوقت الذى يستطيع العقل الانسانى فيه أن يسيطر على الملكية ويحدد علاقات الدولة بالملكية التى تقوم بحمايتها كما يحدد التزامات الملاك وحدود حقوقهم فيها • فمصالح المجتمع تأتى فوق مصالح الفرد ولابد من التوفيق بين مصالح الطرفين والتنسيق بينهما • فالاشتغال بزيادة الممتلكات لا يمكن أن يكون هو المصير النهائى للجنس البشرى اذا أريد للتقدم أن يكون هو قانون المستقبل مثلما كان قانون الماضى • والفترة التى انقضت منذ بدء الحضارة حتى الآن ليست سوى جزءا صغيرا جدا من الزمن الذى عاشه الجنس البشرى كما أنها ليست سوى جزءا صغيرا أيضا بالنسبة للعصور التى سوف تأتى بعد الآن • وانحلال المجتمع يبشر بأن ذلك سيكون نهاية تلك المهنة التى تعتبر الملكية غاية وهدفا ، لأن مثل هذه المهنة تحمل فى ثناياها عناصر دمارها • فالديمقراطية فى الحكم ، والاخاء فى المجتمع ، والمساواة فى الحقوق والامتيازات ، وتعميم التعليم كلها تشير الى المستوى الجديد الذى سوف يحتله المجتمع والذى تهدف التجربة والعقل والمعرفة الى تحقيقه باصرار وثبات • وسوف يكون ذلك احياء — ولكن فى صورة أعلى وأسمى — للحرية والاخاء

والمســـاواة التى سادت العشائر القـــديمة » •
(المجتمع القديم ، صفحتا ٥٦١ ، ٥٦٢) •

ولقد انقضى ما يقرب من قرن الآن على ظهور كتاب « المجتمع القديم » (١٨٧٧) كمـا انقضى ما يقرب من تسـعين عاما على موت لويس هنرى مورجان نفسه (ديسمبر ١٨٨١) •

وفى الفترة الأخيرة من حياته وحتى سنوات طويلة بعد موته لاقى مورجان كثيرا من التنـــكر والاهمال والنقد المرير والتهجم عليه وعلى كتابه « المجتمع القديم » ، ولقد اضطر مورجـــان فى السنين الأخيرة من حياته الى أن يعتزل النـــاس وينصرف الى القيام ببعض الرحلات وان كان ذلك لم يمنع من أن يجد بعض آيات التـــكريم من بعض الهيئات العلمية من حين لآخر • ولكن من الانصاف مع ذلك أن نذكر أن كتاب « المجتمع القديم » قوبل عند ظهوره بكثير من الثناء والاطراء والتقريظ فكان يوصف أحيانا بأنه « واحد من أهم الكتب التى كتبها أى عالم أمريكى فى أى وقت من الأوقات » (١٩) وفى أحيان أخرى بأنه « عمل ينم عن مدى شغف المؤلف ــ الذى هو أكبر علماء الاثنولوجيا فى أمريكا ــ بموضـــوع دراسته » (٢٠) ، بينما يذكر بعض النقـــاد فى صراحة بالغة « بأنه لم يسبقه أى شخص فى ربط دراسة النظم اليونانية والرومانية بالمعـــــلومات الواسعة الشاملة المؤكدة المتوفرة عن مجتمعـــات الشعوب الهمجية والبربرية وحكوماتها » (٢١) • كذلك انهالت خطابات الثناء على مورجان وكلهـا تشير الى الدور الذى سوف يلعبه ذلك الكتاب فى تقدم الدراسات الانثربولوجية والاثنولوجيـــة • فقد كتب اليه هنرى آدمز Henry Adams مثـلا يقول ان الكتاب سيكون « أساسا لكل عمل جديد يظهر مستقبلا فى العلم التاريخى بأمريكا » بينما يبدى هربرت سبنسر Herbert Spencer أسفه الشديد لأن الكتاب لم ينشر فى وقت أكثر تبكيرا حتى يستعين به فى كتـابه الضخم « مبادىء علم الاجتماع Principles of Sociology ، كما أظهر داروين نفسه اعجابه بالجهد الهائل الرائع الذى بذله مورجان فى تأليف الكتـــاب • وبلغ اعجاب الطلاب والدارسين بهذا الكتاب أن طلبة جامعة روشستر Rochester التى تخرج فيها مورجان قاموا بتأليف جمعية أطلقوا عليهـا اسم « نادى المجتمع Ancient Society Club وكانوا يجتمعـــون كل أســبوع لمناقشـــة نظريات مورجان (٢٢) •

ولم يمنع هذا بطبيعة الحال أن يكون للكتاب أعداء وناقدون • ولم يصدر كل هذا النقد عن الكراهية لآراء مورجان التى عضدت من نظريات الاشتراكيين والشيوعيين ، وانما صدر بعض هذا النقد عن العيوب والنقائص المنهجية التى يعانى منها الكتاب وعن الدعاوى العريضة التى يذهب اليهـا دون أن يكون لها سند من الحقيقـــة والواقع فى كثير من الأحيان بحيث نجد العـالم الانثربولوجى البريطانى تايلور يتهم المؤلف بأنه « يبنى بنـــاء نظريا أكبر وأوسع وأثقل من أن تحتمله الحقائق والوقائع التى يقـوم عليها » (٢٣) • وكان هذا أيضا هو ــ رأى ماكلينا McLennan الذى عاصر مورجان ودخل معه فى جدال عنيف • ولكن معظم النقد الذى وجه الى الكتاب جاء من أتباع المدرسة الوظيفية فى الانثربولوجيا ــ وهى مدرسة قامت أصلا على نقد الاتجاه التطورى الذى يعتمد على التاريخ الظنى الافتراضى ، وترى أن الأجدى هو التركيز على دراسة مجتمعات محلية محددة بحيث

يحيط الباحث احاطة تامة ـ ما أمكنه ذلك ـ بكل النظم والظواهر والعلاقات الاجتماعية السائدة فى المجتمع موضوع الدراسة للتعرف على التفاعل القائم بين هذه النظم والظواهر وهو ما يعرف باسم التساند الوظيفى .

ولم يكن نقد الوظيفيين موجها الى مورجان وحده أو الى « المجتمع القديم » فى ذاته ، بل كان موجها الى الاتجاه التطورى فى عمومه والى كل العلماء التطوريين الذين سيطروا على التفكير فى القرن التاسع عشر • ومع ذلك فان بذور الاتجاه الوظيفى ذاته موجودة فى كتابات مورجان وفى « المجتمع القديم » على وجه التحديد ، حيث نجده يحرص أشد الحرص على تبين العلاقات المتبادلة بين التقدم الفنى وأساليب الحياة من ناحية (وهى ما يطلق عليه اسم النسق الايكولوجى فى الانثربولوجيا الوظيفية وفى دراسة البناء الاجتماعى ، والنظم القرابية والسياسية (الحكومة) والاقتصادية متمثلة فى نظام الملكية من الناحية الأخرى ، وان كانت جهوده لتبين هذه العلاقات تتسم بشىء من السطحية والسذاجة وعدم التعمق فى التحليل الوظيفى الى الحد الذى نجده فى الكتابات الانثربولوجية الحديثة • ولكن هذا أمر طبيعى ومقبول عقلا • فقد كانت الدراسات الانثربولوجية لا تزال فى مهدها حين كتب مورجان « المجتمع القديم » •

وعلى أى حال فانه على الرغم من كل ما يقال ضد مورجان وكتابه وما يوجه اليهما من انتقادات، فالظاهر أن الاتجاه التطورى يجد الآن قبولا متزايدا لدى الكثيرين من علماء الاجتماع والانثربولوجيا المعاصرين فى أمريكا ذاتها التى تنكرت طويلا لمورجان • ويتزعم هذه الحركة الاحيائية لنظرية مورجان أحد كبار علماء الانثربولوجيا فى جامعة ميتشيجان وهو الاستاذ ليزلى وايت Leslie White الذى يقوم فى الوقت ذاته بنشر مراسلات مورجان وكتاباته الأخرى الغير معروفة • ويبدو أن هذه المحاولات التى تظهر عموما ضمن حركة فكرية شاملة تعرف باسم الداروينية الجديدة أو التطورية الجديدة بدأت تزاحم الاتجاه الوظيفى وتوجه اليه الكثير من النقد والتجريح وتتخذ مكانها ضمن الاتجاهات الأساسية المعاصرة فى الفكر الاجتماعى والانثربولوجى وتجمع حولها الكثير من العلماء والأنصار والمؤيدين ، وهم جميعا يؤمنون بصدق نظرية مورجان فى عمومها ولكن مع ادخال كثير من التعديلات فى التفاصيل ، وهى تعديلات استوجبتها المعلومات الكثيرة الدقيقة المتوفرة الآن عن ماضى الانسان نتيجة لتقدم البحوث الجيولوجية والانثربولوجية الفيزيقية وعلم آثار ما قبل التاريخ •

هوامش المقال :

(*) Lewis H. Morgan ; Ancient Society, or Researches in the Lines of Human Progress from Savagery through Barbarism to Civilization.

(١) أنظر فى ذلك !
Lowie, R., History of Ethnological Theory Harrp. N.Y. 1937, pp. 12-14.

(٢) Engels, F. ; The Origin of the Family ; International, Pub., N.Y. 1942, p. 5.

(٣) Lowie, Op cit., P. 54.

(٤) White, L. ; Lewis Henry Morgan ; Pio- neer in the Theory of Social Evolu- tion in Barnes (ed.) An Intro

duction to the History of Sociology, P. 138.

Ibid., P. 139. (٥)

Goldenweiser ; Early Civilisation, N.Y., 1922, P. 416. (٦)

Lowie, Op. cit., P. 55. (٧)

(٨) أنظر ترجمتنا العربية لهذا الكتاب بعنوان « الانتربولوجيا الاجتماعية أو علم الانسا الاجتماعي

Evans-Pritchard, E.E., Social Anthropology, Cohen & West, 1951, P. 17.

Romanes, G.J., Animal Intelligence, Paul Tranch, London 1912, P. 367. (٩)

Resek, C., Lewis Henry Morgan : American Scholar, Chicago V.P. 1960, PP. 100-102. (١٠)

(١١) فالمصطلحات الوصفية تنشأ عن طريق اضـــافة المصطلحات النوعية المحددة احدها الى الأخرى بحيث يضيف لنا المصـــطلح الجديد كل دقة درجة القرابة والخطوات الوسيطة التي تفصل بين أي اثنين من الأقارب مثل قولنا : أخو الاب (بدلا من العم) أو ابن أخت الام (أي ابن الخالة) أما مصطلحات القرابة التصنيفية ففيها يستخدم المصطلح الواحد لاشـــخاص يرتبطون في حقيقة الأمر بروابط قرابية مختلفة بالشـــخص الذى يستخدم ذلك المصطلح . وأقرب مثل للاذهان يبين خصائص هذا النوع من المصطلحات هوكلمة Uncle الانجليزية التي تستخدم للعم والخال وزو وزوج الخالة على السواء . انظر في ذلك كتابنا عن « الانسان » وهو الجزء الثاني من كتاب البناء الاجتماعي ص ٣٨٣ .

(١٢) ترك لنا مورجان عشرات المقـالات التي تتنـــاول شتى فـــروع الدراســـات المتصـــلة بالانثربولوجيا والاثنولوجيا ، والقائمة القصـــيرة التالية تكشف لنا عن تنوع اهتماماته : ـ

«Mind or Instinct : An Inquiry concerning the Manifestations of Mind by the LoWer Order of Animals » *Knickerbocker* XXII, 1843 ; «Athenian Democracy » *New York Quarterly,* III, 1853 ; «Laws of Descent of the Iroquois » *American Association Proceedings,* XI, 1858 ; «The Indian Method of Bestowing and Changing Names ». Ibid, XIII, 1859, « The State Canals », *Albany Evening Journal,* March. 12, 1869 ; « The Seven Cities of Cibola » *North American Review,* CVIII, 1869 ; « Indian Migrations », *Ibid.,* CIX, 1869 ; CX, 1870 ; «Stone and Bone Implements of the Arickarees » *New York State Museum Reports,* XXI, 1871 ; « Oxford », *Appleton's Journal,* V, 1871 ; «Road Over the Alps », *Ibid,* VI, 1871 ; « Instinct Its Office in the Animal Kingdom », *Nation,* XIV, 1872 ; « The City of the Sea », *Harper's Monthly,* XLV, 1872 ; « The Human Race », *Nation,* XV, 1872 ; « Factory Systems for Indian Reservations », *Nation,* XXIII, 1876 ; « The Indian Question », *Nation,* *XXVII,* 1878, etc., etc.

(١٣) جميع الاشارات التي ترد في هذا المقال لكتاب المجتمع القديم يقصد بها الطبعة الصادرة عن :

Charles H. Kerr & Company, Chicago, N.D.

White, Op. Cit., p. 1 14 (١٤)

Loc. cit. (١٥)

Resek, K. ; Lewis Henry Morgan : American Scholar, Chicago U.P. 1960, p. 137. (١٦)

Radcliffe Brown, A.R. ; Some Problems of Bentu Sociology, PP. 40-41. (١٧)

White, Op. cit., P. 145. (١٨)

Atlantic Monthly. Vol. XL, 1877, PP. 374- 375. (١٩)

Nation, Vol. XXIV, 1877, PP. 92-93. (٢٠)

Pennsylvania Monthly, Vol. X, 1879, PP. 115-25. (٢١)

Resek, Op. cit., PP. 141-42. (٢٢)

Tylor, E.B., in Academy, Vol. XIV, 1878, PP. 67-68, c.f., Resek, Op. cit., P. 142. (٢٣)